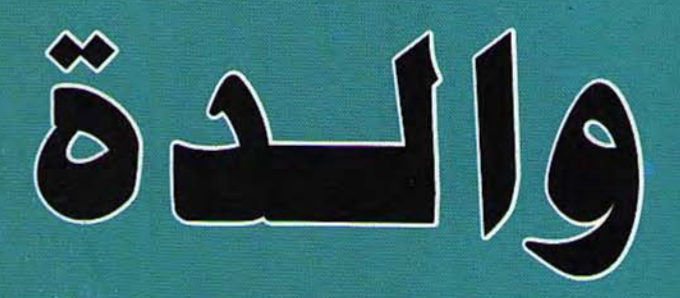
الاتحـــاد



مجانا مع جريدة الاتحاد

فرانسوا موریاك



ترجمة : محمد عبدالمجيد عنبر
عبدالمجيد عابدين



الكتاب للجميع



مجاناً مع جريدة الإتحاد



رئيس التحرير
فرياد راوندوزي

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:Ittihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصگار

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥٤٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الكتاب للجميع

٤٧

فرانسوا مورياك

والدة

ترجمة: محمد عبد المجيد عنبر
عبد المجيد عابدين

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨

الطبعة الأولى
١٩٤٧

الى أخي

الدكتور پيير موریاك

الأستاذ في كلية الطب ببوردو

أكلِ أمر هؤلاء المرضى

دليل المحبة والأعجاب

ف.م

١

- إنها نائمة.
- بل هي تتصنع النوم. هيا بنا.

هكذا كان زوج ماتيلد كازيناف وحماتها يتهامسان حيال سريرها، وهي تراقب، من خلال أهدابها، ظليهما الضخمين المختلطين على الحائط. وسارا على أطراف أصابعهما وأطراف أرجلهما تفرقع، حتى أدركا الباب. وسمعت ماتيلد خطاهما على السلم الرنان، وسمعت صوتين: أحدهما حاد والآخر مبحوح. وملأ هذان الصوتان ممر الدور الأول الطويل. والآن يشقّان مسرعَيْن ساحة الدهليز، القارسة البرد، التي تفصل جناح ماتيلد عن غُرفْتَي الأم وابنها المتلاصقتين. سمعت من بعيد إغلاق الباب فتنفست الصعداء ارتياحاً، وفتحت عينيها. فوق سريرها سهم من الخشب يسند ستارة من نسيج القطن الأبيض تحيط بالسرير المصنوع من خشب المغنة. ومصباح النوم يضيء بعض الباقات الزرقاء المنقوشة على الحائط. وعلى المائدة الصغيرة كوب من الماء، أخضر، مخطط بالذهب ارتج من حركة مرور القاطرة، إذ كانت المحطة مجاورة. وانتهت حركة المرور فأنصتت ماتيلد الى تهامس تلك الليلة من هذا الربيع الآفل (كما ينصت المسافرون، حين يتوقف سير القطار في وسط الريف، الى صرير الصراصير من حقل مجهول). مر قطار الساعة العاشرة مساء فارتج المنزل العتيق بأجمعه. واهتزت أرض المنزل، وانفتح باب مخزن في الدور الأعلى، أو باب غرفة مهجورة. ثم هدر القطار فوق الجسر الحديدي الذي يمتد على نهر الجارون. وتسلّت

ماتيلد بتتبع هدير القطار، ثم لم يلبث أن غلب على الهدير حفيف الأغصان.

وغلبها النعاس ثم تنبهت؛ فقد كان سريرها يرتجف من جديد، سريرها فحسب لابقية المنزل، وليس من حركة مرور في المحطة الهامدة. ومرت بضع ثوان أخرى قبل أن تدرك ماتيلد أن رعشة تنتاب جسمها فتهز سريرها وأن أسنانها تصطك بالرغم من أن حرارتها مرتفعة. ولم تستطع أن تمد يدها الى مقياس الحرارة الملقى على وسادتها.

وانقطعت رعشتها، ولكن ناراً مازالت تتأجج في أحشائها تتصاعد منها كقذائف البركان؛ فقد كانت تحترق. ونفخ هواء الليل في الستائر، فملأ الغرفة بأريج الزنبق مع دخان فحم يحترق، وتذكرت ماتيلد أول أمس، حين كانت غارقة في دماء إسقاط جهيضها ساعة أن خافت على جسمها من القابلة وهي تعمل يداً لاتعرف الملل ولاتوقن بالنجاح.

- لابد أن حرارتي فوق الأربعين... ومع ذلك فهم لايريدون أن يسهر معي أحد...

وأخذت عيناها الغاربتان تحدقان في السقف، في هالة النور المتأرجحة، قابضة بيدها على ثدييها الصغيرين وهي تّصيح بصوت قوي:

- ماري! ماري دي لادوس! ماري!

ولكن كيف تسمعها الخادمة ماري دي لادوس (نسبة الى قرية لادوس التي نشأت فيها) وهي تنام في مطمورة المنزل؟ ماهذه الكتلة السوداء القريبة من النافذة كأنها وحش مستلق قد ارتوى شبعاً أو قعد يتربص؟ ولكن ماتيلد لم تلبث أن عرفت أنها المنصة التي أقامتها حماتها من زمن بعيد في كل غرفة، حتى تتمكن أن تقفو أثر ابنها في غدوه ورواحه، حين يلف في دوران الشمال، أو يذرع ممر الجنوب، أو يعود من الباب الشرقي. ذكرت ماتيلد أنها رأت، في أحد أيام خطبتها، تلك الحماة الضخمة تقف على إحدى هذه المنصات منتفضة غاضبة تدبدب برجليها وتصيح:

- لن تمتلكي ولدي! ولن تستولي عليه أبداً!

ثم عادت حرارة ماتيلد تأخذ في الهبوط. وقد صرفها إعياؤها الشديد وانهيار جسمها عن أن تحاول تحريك أصبع من أصابعها، ولو لتبعد عن جسمها المبلل قميصها الملتصق. وسمعت في هذه الساعة صرير الباب العام؛ فقد كان من عادة السيدة كازيناف وابنها أن يجوسا، وفي يدهما المصباح، خلال الحديقة، ينشدان

الأمكنة الخفية المبنية قريباً من منزل معهما مفتاحه، يملكه أحد الفلاحين. ومر بخلد ماتيلد المنظر اليومي: أحدهما ينتظر الآخر، ثم لايكفان عن الكلام في طريقهما الى الباب، وقد نقش عليه رسم للقلب. وأحست من جديد بالبرد، فاصطكت أسنانها وارتجف سريرها وبحثت بيدها عن شريط الجرس - وتلك طريقة عتيقة كانت قليلة الاستعمال - فشدته وسمعت صوت احتكاك الخيط بالطُنُف، ولم تسمع له رنيناً في المنزل المخيم عليه الظلام. وعادت ماتيلد تتقد، وهرّ الكلب تحت السلم العام ثم انطلق نباحه الصاخب؛ إذ رأى شخصاً يسير في الطريق الضيقة التي تفصل الحديقة عن المحطة. وحدثت نفسها قائلة: «حتى البارحة كنت عرضة للخوف!» ذلك أن ماتيلد لم تنس ليالي الرعب الجنونية التي قضتها في هذا المنزل الفسيح، المرتجف دائماً، الذي لم يكن حتى لنوافذه ضلف تقيها! كم من مرة انتفضت في فراشها صائحة: «مَنْ هنا؟» ولكنها الآن لم تعد تشعر بالخوف، كما لو أن هذه النار المتقدة قد وقفت حائلاً بينها وبين أن يصل إليها أحد. وما طفق الكلب يهر بالرغم من انقطاع صوت الأقدام. وسمعت ماتيلد صوت ماري دي لادوس: «ماخطبُك ياپليو؟» وسمعت پليو وهو يبصبص بذنبه جذلاً يضرب حجر السلم العام، وماري دي لادوس تهدئه بلهجتها الريفية: «بس! بس!» وبدأ اللهيب يغادر من جديد هذا الجسم المحترق. واستحال إعياؤها الشديد هدوء وسكينة. وظنت أنها تمد أطرافها المحطمة على الرمال، أمام البحر، ولم تفكر في الصلاة.

٣

وبعيداً عن هذه الغرفة، في الجهة الأخرى من الدهليز، في غرفة الاستقبال الصغيرة المجاورة للمطبخ، كانت الأم وابنها يرقبان نشوب اللهيب وفناءه في كتلة من الخشب، بالرغم من أنهما في ذلك الوقت كانا في شهر يونيو. وكانت الأم قد تركت على بطنها جوربا مشغولاً الى نصفه، وأخذت تحك بالإبرة الطويلة رأسها حيث يبدو قليل من جمجمتها البيضاء بين خصلات شعرها المصبوغة. وتوقف ابنها عن أن يقصَّ بمقص أمه ورقات من طبعة شعبية لحكم الفيلسوف إيبكتيت. ولأنه كان فيما مضى طالباً في مدرسة السنترال، فقد كان يعتقد أن الكتاب الذي يشتمل على أهم الحكم التي ألقيت، منذ أن خلق البشر، قد يكشف له بطريقة رياضية عن سر الحياة والموت. ولذلك أصبح همه كله أن يجمع الحكم من مصادرها. وكانت تسلية القص وحدها تعينه على الوقت كما كان في حال صباه. أما في هذا المساء فلم يكن هناك مايصرف الأم وابنها عن أفكارهما. وانتقض فرنان كازيناك على قدميه الطويلتين دفعة واحدة وقال:

- يبدو لي أن أحداً يدعو.

ومضى يجر نعليه الى الباب. ولكن أمه أدركته مسرعة:

- لن تعبر الدهليز مرة أخرى؛ فقد سعلت ثلاث مرات في هذا المساء.

- إنها وحيدة.

وماذا كان يخشى من خطر؟ ما أكثر مايغلو في تقدير هذا العارض! فأخذ بذراع العجوز وهو يقول: أنصتي. ولم يكن يصل إليهما إلا صوت قاطرة وصفير

بلبل في الليل، يصحبهما ارتجاج المنزل المستمر بسبب مناورات القاطرات في المحطة. وسينقطع هذا الارتجاج حتى أول قطار في الفجر. وقد تمر مع ذلك قطارات البضاعة الطويلة، في خارج المواعيد الرسمية، فتزلزل الأرض زلزالاً يدفع كل فرد من أسرة كازيناك الى أن يهب من نومه مذعوراً، فيضيء شمعته وينظر في ساعته. ثم جلسا وقالت فيلستيه؛ لكي تصرف انتباه ابنها:

- أتذكر؟ لقد قرأت الليلة حكمة وكنت تريد أن تقصها؟.

وتذكر الحكمة. وكانت في مجموعة سپينوزا. وهي فيما يظهر: «الحكمة تأمُّل في الحياة لا في الموت».

- إنها جميلة، أليس كذلك؟.

ولما كان قلبه سقيماً، فقد أوحى إليه الخوف من الموت باختيار الحكم التي تحبب الحياة، كما أوحت إليه غريزته بالحكم التي كان يسيغها عقله الذي كان أقل دُربة في عالم الفكر منه في عالم الأرقام. وتمشى في الغرفة، وكانت جدرانها مكسوة بالورق الأخضر وقد نقشت عليه خرائط بارزة، وفيها أريكة وكراسي مغطاة بالجلد الأسود تعيد الى الذهن أثاث غرف الانتظار. ويحيط بالنوافذ أشرطة من القماش طويلة ضيقة، ذات لون يحاكي رواسب النبيذ. وكان مصباح المكتب يلقي ضوءاً على دفتر حسابات مفتوح، ومقلمة فيها أسنان ريش للكتابة، ومغناطيس وقطعة من الشمع مسودة. وبدا مسيو تيير مبتسماً في بلورة كباسة للورق. وقد رأى فرنان وهو عائد نحو أمه على وجهها الأغبر المنتفخ تقطيبة ضحك مكظوم، فنظر إليها كأنه يسألها، فقالت:

- حتى هذا الجهيض لم يكن ذكراً.

فأجاب بأنه ليس من الممكن أن تُلام ماتيلد على ذلك، غير أن العجوز هزت رأسها دون أن ترفع بصرها عن إبرتها قائلة: إنها عرفت كيف «تكشف هذه المدرّسة الصغيرة» من أول مقابلة. وجلس فرنان من جديد قريباً من المائدة، وقد لمع عليها المقص الملقى بين كتب الحكم المقصصة. فقال متجرئاً:

- وأية امرأة ظفرت منك بالرضا؟

عندها قالت السيدة العجوز في غضب مبتهج:

- وعلى كل حال لم تظفر به هذه المرأة!

فقد وصمتها بالحماقة منذ اليوم الثاني لزواجها حين قاطعت زوجها بقولها: «لقد رويت ذلك من قبل» كلما سمعته يروي قصة المسابقات التي كان مغرماً بها، أو يردد قصة إخفاقه الوحيد الذي أصابه في مدرسة السنترال، والشرك الذي نصب له في الامتحان فلم يلتفت إليه، أو يذكر حسن احتماله ذلك المساء حين اتخذ زينته وذهب في ثوب السهرة الى الأوپرا ليشاهد قصة «الهوجينو».

- وغير ذلك مما لا أريد قوله!

بالها من حمقاء! لقد كتبت على نفسها الشقاء! فلم يمض شهران حتى عاد الابن المحبوب الى النوم في سرير الطالب الصغير اللاصق بغرفة أمه. وظلت الدخيلة وحيدة في الجناح الآخر من الدار. ومنذ ذلك الحين، أصبحت وكأنها أقل شأناً من هاري دي لادوس. وظلت كذلك حتى جاء اليوم الذي قلدت فيه بعض النساء اللاتي كن في عصر الإرهاب يدّعين الحمل ليتقين به المقصلة. فالذي حدث أن الخبيثة قد كسبت فرنان مرة أخرى، وأصبحت مقدسة لديه. فكان يشمخ بأنفه غروراً؛ إذ توقع أن عدد أفراد أسرة كازيناڤ سيزيد واحداً في الوجود. وكان فرنان يقدس اسمه مثل سيد عظيم، فكان هذا يكيد فيلستيه؛ لأنها من سلالة پيلوير الناشئة من «أعرق السلالات في بلاد اللاند» وهي لاتريد أن تتذكر أنها في عام ١٨٥٠ عندما دخلت في آل كازيناڤ كانت جدة زوجها «ماتزال ترتدي الملحفة». ولم تجد مايدعو الى الصراع في أثناء الأشهر الخمسة من الحمل... آه! حقاً إن العجوز كانت تعمل في الخفاء على إسقاط الجنين؛ لأن العدوة كانت تستطيع أن تلد ولداً حياً... وشكراً لله فالقابلة قد قررت أن ماتيلد ليست حسنة التكوين، وأنها عُرضة «للحوادث».

- ياعزيزي إنني أفهمك. ما كنت لتهتم بالمولودة وتحرص عليها؛ فإن منظرها كان لابد يسؤوك، وكان يصيبك منها مايصيب الوالد من ولده من المضايقات والتكاليف، ولاسيما أن ماتيلد لاتستطيع أن تغذيها؛ فهي لاتصلح لذلك، فكان لابد لها من مرضعة، أما أنا فلقد لبثت على قدمي ثمانية أيام بعد ولادتك ولم أفطمك إلا بعد ثمانية عشر شهراً، وفعلت ذلك أيضاً مع أخيك البائس هنري.

فقام وقبل جبين والدته، وقال في عظمة:

- لاغرو، فأنت المثل الكامل لمؤسسة أسرة.

وجلس من جديد، وبدأ أنين المقص.

- أخبـرني يافـرنان مـاذا كنت تصنع ببنت صـغـيـرة؟ ومـا كـانت تمل من هذا الإلحاح، إذ كانت تراقب انتصارها عليه:

- تصوَّر بنتاً صغيرة تقوم تربيتها على كراهيتنا.

وثبّت في الفضـاء عـينين جـاحظتين كـأنه يبـحث فـيـه عن ذلك الشبح الوهمي والخيال الواهي الذي كانت أمه تخترعه. ولكن شيئاً من ذلك لم ينل من قوة خياله.

لم يُتح له أن يرى هذا المولود الصـغـيـر الذي كـانت زوجـتـه الشـابة تخلقـه في مخيلتـهـا لكي تتعزى به عـن مـوتها وحيـدة في غـرفـة. فقد خلقت من هذه اللفافة الداميـة التي حملتهـا القابلة شخصـاً حيـاً تستـشـعر مـاتيلد عضـتـه في ثديهـا. ومـا صـورة وجهه لو ولد حيـاً؟ اكتـشـفت المحمومـة في أغـوار قلبهـا أنه لايشبـه أي وجه عرفته - وجه متوسط الحسن، يعلوه الهزال والضعف، له في طرف شفته اليسري تلك العـلامة التي كـانت لدى مـاتيلد. «وقـد كنت سأظل جـالسـة في الظلام بالقـرب من مـهده حتى يمر القطار السريع الذي سيفزعـه».. ولم يكن لهذا العـالم الخيـالي الذي حبـست فـيـه نفسـهـا مع الطفلة المزعـومـة صلة بهـذا الوجـود. فليس في إمكان من يكرهها أن يطاردها في عـالمهـا هذا. وها هو رأسـهـا المثقل حيث كان الدم يندفع. لم تستطع أن تتخلص من سؤال ملح معقد سبب لها العذاب: هل يعلم الله أية شجيرة كان مقدراً لهـا أن تنمو من هذه البذرة الميتة؟ هل يعلم الله مـاذا كانت تؤول إليه تلك العيون المنطفئة؟ ألا نجد بعد الموت ملايين البشر الذين عاشوا من قبل؟ ما الذي كان مقدراً لهـذه اللفافـة من اللحم في طي الزمن...؟ وهنا كلٌ فكرها؛ فـقـد ارتدت عنهـا لفحـة النار، وتظاهرت الحـمى بمغادرة جـسـمـهـا المنتفض المغـمـور بعـرق لزج، وظلت فريسـة هذا الاضمـحلال الذي لم يكن إلا بداية الموت. وأحست بأن وحشاً مفترساً قد ألقى بهـا جانباً. آه! لعلهـا تعـود من لحظة الى أخرى، راقبت وهي على ظهـرها إقبال الرعشـة نحوها، ورصدت علامـاتها ولكنهـا لم تقبل بعد، فسبرت أعمـاقهـا كمحـملق في سمـاء مكفهـرة لايسـتطيع أن يأمل انقشـاع العـاصفـة عنهـا. ربما الحيـاة! الحيـاة! وجرت على خديهـا دموع ثقيلة سخينة فضمت يديهـا اللزجتين وقبضتـهـما: «اذكـري أيتها العـذراء النبيلة أننا لم نسمع حتى الآن أن أحداً ممن اندرجوا تحت لوائك ونشدوا معونتك قد كُتب عليه الإهمال والهجران...» وقُذفت من جديد على ساحل الحيـاة، وعادت تـسمع موسيقـا العالـم الليلية، والليل يتنفس في الأوراق. والأشجار الباسقة

تتهامس تحت ضوء القمر فلا ينبه همسها العصافير. وعبرت موجة من الهواء النقي المنعش المقبل من المحيط، فسرت على قمم الصنوبر الكثيفة، وفي حقول العنب الواطئة وحملت أريج الزيزفون القائم في الحديقة، ثم تلاشت أخيراً على هذا الوجه الصغير الطليح.

٣

بلغ الإعيـاء منها مبلغاً كبيراً ولكنه كان عذباً لطيفاً. كان قلبها وحده يدق بجنون نسبي، وكانت لاتحس معه بألم. لا، لا. إنها لن تموت، ستحيا ولن تسمح للعدو أن يسيء إليها. ليتها تحمل مرة أخرى! حينئذ ستضطر العدوة الى الاستسلام. فحسبها أن تكتم أنفاس حماتها. أما فرنان فما أيسر أن تلجمه وتمسك بزمامه! ولقد أخطأت بحماقتها حين أسلمت نفسها بعد الزواج الى طبيعتها المرحة دون أن تكتم شيئاً منها. فتمادت في السخرية التي أحبتها وقاست من جرائها في أيام خطبتها، واعتقدت أنها سلاح يكسبها المباراة التي لم تبدأ بعد. وكانت ماتيلد تعمل كمدرّسة عند آل لاشاسيني. ومن خلال شجر الحناء الذي يفصل بين أملاك آل كازيناڤ وحديقة آل لاشاسيني، فكرت الفتاة: ما كان أسهل إشعال نار الرغبة في قلب رجل خجول قد حبا الى الخمسين، لا سيما وقد وقعت السمكة الكبيرة بإرادتها في الشرك المنصوب. وكان على ماتيلد وهي ترقب مايدور من مناقشات بين الأم وابنها - أن تعلم أن هذا الرجل التقطها كما تلتقط الكرة وأنها لن تكون إلا سلاحاً في يده يستعين به في الصراع اليومي الذي كانت الأم تتغلب فيه حتى الآن على ابنها. أما في هذا المساء، فمع كونها صريعة في هاوية من الإعياء، فإنها تأمل أن تنتصر من الآن فصاعداً على ضحكتها المسترسلة وتخدش سخريتها التي أثارت غضب فرنان من قبل، ذلك الصنم الذي تعود أن يُعبد. ولقد نسيت إن حياة بائسة بأكملها قد كونتها على هذا

المنوال، وأن قلبها قد أصبح جامداً كالصخر، وأنها تسلحت بالطبع الخشن، وأقامت السخرية حداً بينها وبين العالم.

عاشت فتاة صغيرة في منزل واطئ من شارع دي كوديران - وفي بوردو يطلق على مثل هذه المنازل اسم دكان - وكانت هي، وچان أخوها الأصغر، يرسلان ضحكات خفية عن أبيهما - وكان مدرساً للسنة الثالثة بمدرسة الليسية - إذا ما انقطع عن تصحيح الواجبات، من جراء إصابة عينيه بالسُّدَد. فقد كان مصباح المكتب لايوزع الضوء كاملاً في الغرفة، فما كان يضيء منه إلا كفَّيْن نحيلتين ممسكتين بكراسات ملأى بخطوط الأطفال. وكان الضوء يكسب وجهه الذاهل خضرة غريبة. وعرفت ماتيلد وچان، منذ ذلك الحين، أن أمهما لم تمت في بوردو كما كان مزعوماً، ولكنها ماتت تحت سماء أخرى، وبجانب رجل آخر. وعلى كل فقد كان ضحك البنت وأخيها على أبيهما بريئاً من كل خبث؛ إذ لم يسمعاه يوماً يشكو أو يتألم، فريسة مطاردة تلوذ بالصياح.

إنه لنصر هائل لهذا الطالب النورمالي، الممشط الذقن، والمعتني بلحيته حسب عادة أهل عصره، في العام الذي ألقى فيه عشر محاضرات على تلميذات مدرسة في موضوع «مرض رينيه». فقد فاز بفتاة من آل كوستو (وهي بنت أخي أحد مجهزي السفن، وكان أبوها قد أفلس في أحد اصطبلات خيول السباق) إلا أن فتى من عشيرتها أخذ يتردد عليها، ولم يقدر الرجل على حمايتها منه وهكذا كانت طيبة قلب هذا المدرس وبالاً عليه، فبينما لم يحضر أحد من آل كوستو عقد قرانها، غدوا يتكلفون في رد تحيته بعد أن خانته امرأته، ثم أدى، الإجهاد العقلي، القصير والمتوالي، الى حالة لم يستطع معها أن يقوم بتصحيح كراساته بمفرده؛ فكانت ماتيلد، وهي طالبة في ذلك الوقت، تقوم مقامه، كما كانت كل صباح تعينه على الصعود في ترام «الكروابلانش» وتصحبه الى الشارع الواقع خلف الليسية حتى لايستطيع أحد من الطلبة أن يتعرف عليها، وتظل واقفة ترقبه على حافة الرصيف وهو يدلف بعيداً على ركبتين لينتين متجهاً نحو حجرة الدراسة حيث ربما كانت تنتظره ضوضاء التلاميذ. ومع كل فقد كانت لاتزال تضحك في ذلك العهد المرير من قول ابن خالتها لاشاسيني «مبعوث العناية الإلهية» إنه لايتصور كيف أن المدرس لم يفكر في الاستقالة من تلقاء نفسه، أو من قول السيدة لاشاسيني مراراً (وكانت من آل كوستو) إنها لو كانت في مركزهما لاستغنت - بلاشك - عن غرفة الاستقبال

والخادمة. كذلك كانت تسخر ماتيلد من أن أباها، وكان أبناء خالتها يفضلون چان عليها تفضيلاً ظاهراً. فقد كانوا يعجبون بوجهه الملائكي وخصلات شعره القصير ذات لون الذهب المحروق، وأسنانه الحادة، وضحكته المنعشة. وكان من عادة چان، إذا حل المساء، أن يهرب من نافذة غرفة الاستقبال. فتظل ماتيلد ساهرة حتى تفتح له مزلاج الباب العام حين يعود بعد منتصف الليل وعيناه الساذجتان الفاحشتان تحيط بهما هالة من الجهد اللذيذ، ويداه ملوثتان وقميصه لايزال مفتوحاً، وعلى رقبته المؤنثة آثار القبلة الأخيرة. فكانت تستقبل ملاك الفجر الذابل بسخرية جافة دون أن تؤنبه. وحدث في عهد ما، أنه كان عاشقاً لإحدى راقصات مسرح البوف فحمل الى مصرف الرهون بعض القطع الفضية على مرأى من ماتيلد، ولكنها لم تفكر في أن تنبه أباها وآل لاشاسيني. وقد اعتقدت أن كل شيء قد رجع كما كان حين ردّها الى موضعها بدولاب الأدوات الفضية نادماً على مافعل ندماً رقيقاً، حتى إن ماتيلد - وما كانت تتبسط إلا بقدر - قبلت وجهه الملائكي العزيز، وقد أصبح أقل نضارة مما كان أيام ربيعه، فتلوث بحبوب صغيرة قذرة. وعلى كل فقد تعود الملاك أن يطير في كل ليلة من ذلك الربيع المشؤوم. ومع كونه ملاكاً، فلم يكن جسمه من الرشاقة بحيث يستطيع أن ينفذ من خلال النافذة حين يقدم في منتصف الليل، فكان لزاماً على ماتيلد أن تظل ساهرة حتى تفتح له المزلاج. وقد يرفض الملاك النوم مطرقَ البصر محركاً في جيبه قطع الذهب، وقد يقذف بها فجأة على المائدة قائلاً إنه سيحصل عليه ولو لم يكن موجوداً. وتفوح منه رائحة التبغ والعطر والفراش، ويدندن في أغنيته «لا. لن تعرفي أبداً - يامن أستعطفك اليوم - أأحبّك أم أكرهك...» وهي ترجوه ألا يوقظ الأب بصوته، وهو يصمم على أن تذهب الى المطبخ؛ لتبحث له عن فضلات الطعام، فيبعث ذلك الدهشة في ماتيلد، وتجد في وجبة مابعد منتصف الليل تسلية مرة. وفهمت أحاديث الغلام فهماً سيئاً: ورغماً عن وجود هذا الولد الفاسق فإنها لم تجد ضيراً في أن تنصت الى هذره حتى ساعة الترام الأول المرتجفة.

وأخيراً انفجرت الفضيحة، وسرعان ما أخمدت بفضل ناظر المدرسة، وآل لاشاسيني وآل كوستو. ولم تعرف ماتيلد شيئاً مما حدث، إلا أن البوليس قد تدخل، وأن آل لاشاسيني يستحقون الشكر الجزيل، لأنهم استطاعوا أن يرحلوا چان الى السنغال حيث يقتني آل كوستو عدة مصارف. وظل الوالد بضعة أشهر وهو في ذهول نسبي حتى تمنى آل شاسيني له الموت لصالحه ولصالح غيره. وتنفسوا الصعداء يوم

وفاته وذكروا مراراً أنه يوم خلاص وتحرير. وكانت السيدة لاشاسيني تعلم أنها لو كانت محل ماتيلد ما كانت رقتها لتجعلها تصمم على ارتداء السواد لأن تلك العائلة هي التي ستدفع ثمنه كما جرت العادة. وقد دفعوه وأخذوا اليتيمة الى منزلهم الكائن في لانجون حيث كانوا يمضون فصل الصيف. وأوصوا ماتيلد ألا تتعب طفلتهم السقيمة. وعرف آل لاشاسيني عن قريبتهم الفقيرة أنها «حاذقة تعرف كيف تختفي» والواقع أنها كانت تختفي عند تقديم الحلوى، حتى في أثناء الطعام كان يقال إنها تطفئ شعرها الأشقر، وإنها تظل مطرقة لاتشخص الى شيء، وإنها تنتقي لفستانها لوناً يشبه خشب الجدران. وإذا ذكرت الأحاديث الخاصة بالأسرة في حضورها، لم يحترسوا من وجهها الباسم الذي يرى ويتظاهر بأنه لايرى ولايسمع، ويتصنع أنه لايسمع. عند هؤلاء القوم كانت ماتيلد ترضي «الى آخر مدى» طبيعتها الساخرة التي سببت حتفها فما بعد عند آل كازيناف؛ إذ دخلت بيت الزوجية وهي على هذه الطبيعة الجافة الجدبة: أرض حزينة لا ماء فيها! فهي التي لاتعرف عن الرجل الكريم إلا صورة أبيها المضحكة المسخرة الذي كان أجره في المدرسة أقل من سائق السيارة (وكان يجمع في علبة التبغ أعقاب سجائره). ولاتعرف عن الحب إلا ماجربته في صورة أخيها الملاك ذي الريش القذر الذي كان يهبط في الليل على باب الدكان العتيق. وها هي تنظر خفية الى آل شاسيني بقسوة وحشية وكانت تقول إنهم في درجة واحدة من السمنة لأن همهم منصرف الى غذائهم، وإن الشحم يأكل عيونهم، وإن للزوج والزوجة، أو قل للأخ والأخت، من اللحم والأشداق اللامعة بحمرة خالدة، صوراً متماثلة؛ فهم يشبهون – على حد تعبيرها – غيلان البحر ذوات الأنامل المنقبضة، ولا طموح لديهم أكثر من ابنتهم هورتنس التي كتبت عنها ماتيلد في مذكراتها السرية: «إن حول رقبتها عدداً كافياً من اللآلئ تخفي به معالم مرض الخنازير». وما أشد احتقارها لهم حين كانوا يتكلمون على المائدة بتراخٍ، ويخللون بين الكلمة والأخرى بلقمات كبيرة! «إنهم لايتابعون سير الحديث إلا بعد الازدراد، مثلهم كمثل من لايضحي بالطعام في سبيل الكلام». وألفت كلمة مناسبة لوضعها على قبورهم: «أكلوا واستبقوا الفضلات الى جانبهم».

ولكن شخصين آخرين من وراء شجر الحناء الحاجز، كانا يصرفانها عن لهوها مع آل لاشاسيني. ويمتد هذا الحاجز عل طول ممر الجنوب الأثير عند فرنان كازيناف، ويفر فيه من الرقابة الأموية. كان الابن الكهل يتمشى ملقياً نظرات خائفة عن يمين

ويسار، ويدخن سيجاره خلسة كما يفعل التلميذ. فإذا حدث أن انقضت عليه فليستيه من إحدى المنصات التي كانت تراقبه منها، لم يكن لديه من الوقت مايمكنه من دفن باقي السيجارة في حوض زهر. وفي ذات يوم رأته ماتيلد يلتهم في الخفاء شمامة كانت حرارة أحشائه تمنعه من أكلها. وقذف ببقاياها من فوق الحاجز فأصيبت الجاسوسة في وجهها. فلفّت بقاياها كدليل اتهام في صحيفة، وذهبت بها الى آل كازيناڤ تخبر ماري دي لادوس أن لصاً كان يسرق في الحديقة، ثم عادت تتربص وراء الحاجز، حيث وصل إليها صدى الغاصفة المنفجرة.

غير أنها قد روقبت في كثير من الأحيان، وكانت تتظاهر بأنها لاترى كازيناڤ الضخم الذي يحكي في ضخامته إله الينابيع، وهو يفرّق فروع البشملة والبندق والحناء. وفي الحقيقة لم تكن تتطلع من وراء هذه النظرة البلهاء الى آمال واسعة: فالفتاة الجارونية قد تعودت من الرجال مثل تلك النظرة الحرجة والالتفات الطامع. إلاّ أن السيد لاشاسيني كان يضايق ماتيلد ويثقل عليها: فزعم أن فرنان كازيناڤ سأله بعض أسئلة خاصة بالفتاة وطبيعتها وذوقها، وأراد أن يعرف ما إذا كانت أمها من آل كوستو... وكيف أن ماتيلد لم تذكر حينئذ المحاورات التي ضبطتها من خلال الحاجز، ولم تكن تدرك منها إلا الجلبة والضجيج (فقد كانت الأم والابن يتهاديانْ متكاتفين كسفينتين باليتين، ويبتعدان عن ممر الجنوب فلا يظهران إلا مرة أخرى عندما ينتهيان من لفة الدوران).

في هذا المساء خيل إلى ماتيلد أنها تسمعهما في ظلمة الليل وقد اشتد تعبها فلا تستطيع أن تمد أصابعها الى لحافها. إنها لم تشعر بالرعشة بعد ولكن هل تستطيع أناملها أن تبرز من هذه الهوة السحيقة من التعب؟ أما لهذا التحطم من نهاية؟ إنها تعتقد أن جسمها ليس متحطماً بالمرض ولكن بضربات الرجل والمرأة العجوز. تتصور الفتاة أنهما الآن في غرفة المكتب وكم انقضت فيها سهرات غبراء! «ها هي ذي تصلح قطعة من الحطب، وتبعد المقاعد، وتضع حوافظ الشرر، وتقول لولدها: لم أقبلك. سأذهب لأثني أطراف اللحاف تحت المرتبة».

تذكرت ماتيلد كم كان قلبها يخفق يوم اختفت وراء الحنّاء؛ لتراقب الزوبعة الصاعدة من الصوتين المختلطين: رأت الأم والابن يظهران أخيراً من نهاية الممر ويصيح فرنان بأعلى صوته متهماً إياها بأنها، في أثناء الانتخابات الأخيرة، اضطرته أن يرفض عرض لجنة الحزب الراديكالي، ولم تسمح له أن يحتفظ بمنصبه

مستشاراً. ووقفا على بضعة أمتار من ماتيلد المتربصة، وقالت له العجوز:

- قصدت أن تتمتع بالحياة قبل كل شيء. أتسمعني؟ تتمتع بالحياة!

- دعيك من هذا! فإن الطبيب دلُوكْ كان يؤكد لي أني في غاية القوة الى الأمس وأني مبنيّ بالجير والرمل، وأني سأعيش بعدكم جميعاً. فأنت قصدت أن أعيش قريباً منك. هذه هي الحقيقة.

- أنتَ مبنيّ بالجير والرمل؟ دلُوكْ أخبرك بذلك ليتملقك . كأنك لم تشْكُ منذ أن أصابتك الحمى القرمزية وأنت في العاشرة، بأكداس من الآلام عجز الأطباء عن تشخيصها! أضف الى ذلك التهابك الرئوي المزمن في سنة تطوعك للجيش... وغير ذلك مما لايحصى.

ولما ظهرا من جديد بعد جولة أخرى، عرفت الفتاة أن موضوع النقاش قد تغير مجراه:

- إنك لاتريدين أن أتزوج حتى تسيطري عليّ أكثر من الآن. فأنت... أنت التي نمّيت وحدتي وانعزالي.

- أنت تتزوج أيها الماجن البائس! أريد أن أراك تتزوج.

- لاتتحديني.

فهزت العجوز كتفيها مبهورة الأنفاس، وهي تروّح بمنديلها على وجهها الأدكن. في ذلك اليوم عرفت ماتيلد ماجهلته بالأمس. عرفت ما أسست الأم عليه اطمئنانها: فقد كان يحدث كثيراً عقب المشاجرات المسائية أن يأخذ فرنان القطار الى بوردو حاملاً حقيبته الخفيفة؛ ليصل الى تلك المرأة التي كانت السيدة كازيناف تشير إليها دائماً تحت لقب «مزاجه».

- ألا تعلمين أن لفرنان مع الأسف «مزاجاً» في بوردو يسكن في شارع هجوري؟.

وتردف قائلة: «إنه وجّهها توجيهاً طيباً، فمن الممكن أن يطمئن المرء عليه فلن تقضي على ماله». وعلى كل فلم يستطع مزاجه أن يستأثر بفرنان أكثر من أيام ثلاثة: ثم يعود وهو يرتعد من البرد؛ لأنه كان ينسى ملابسه الداخلية ويأتي مثقلاً بالنوم؛ إذ أن من عادته ألا ينام مع شخص آخر - وقد أثارت سخطه المطاهم والنفحات. وكان يعود أخيراً منهكاً كسير النفس، لأن هذا النوع من المجهود كان يتعب مراكز أعصابه.

- سأخذ غداً قطار الساعة العاشرة صباحاً.

- على راحتك ياولدي. مع السلامة.

تذكرت ماتيلد ما كانا يعويان به من هذا التهديد وهذه الإجابة. وتذكرت أن تنفيذ القدر المحتوم قد بدأ منذ ذلك الحين؛ فلقد عقدت النية حين سمعتهما على أن تأخذ هي أيضاً قطار العاشرة صباحاً.

لن تخدعي نفسك، ولن تشعري برعدة بعد الآن. كنت توهمين نفسك وهما بأنك مصابة ببرد من ريح المساء أو من هذا العرق المتصبب من أناملك، ولقد كتبت على نفسك الشقاء. فلا شيء من الحنان قد جذبك نحو هذا الرجل العجوز. لقد دفعتك غريزة الضباب الى البحث في كل مكان عن منفذ لحياتك المحكومة التابعة. وإن من أخطر الأمور أن نبصر الأشخاص بمنظار المنفعة، وألا نبحث فيهم إلا عن قيمة استغلالهم. كنت تستجوبين كل مخلوق، وكل حادثة، وتجيلين فيها الطرف كأنها بطاقات تتأملين فيها سبيل النجاح. كنت تدفعين كل باب مورروب - أسيرةً لاتبالين بما يشرف عليه الباب من خلاء أو هاوية. ولاشك أنك ما كنت تتصورين أن كل ماصنعته من الحيل قد أفلح في ذلك الصباح حين احتججت بطبيب الأسنان، وأخذت تذكرة الدرجة الثانية الى بوردو وجلست حيال فرنان كازيناڤ...

الآن أيقنت ماتيلد: فالعاصفة القاتلة تعود فتثنيها وتهزها وتنفذ الى أعماقها، وتعمل على اقتلاع شجرة صغيرة نابضة بالحياة. تذكرت أنها كانت تصيبها الحمى وهي صغيرة، فتلهو باصطكاك أسنانها. فلم لاتلهو الآن بكل جوارحها؟ ما أشد اهتزاز السرير! إنه ما كان يهتز بهذه القوة في المرة السابقة. ومن أعماق هذه العاصفة، أحست بهدوء الليل إحساساً غريباً حول جسمها المهيض، وأصغت في عالم حالم منيع الى همس العصافير والقمر يوقظها، والى الريح اللينة وهي تكاد تهز أعلى قمم الأشجار. وحيدة! وحيدة! أين أبوها، فقد كان يحضر ليجلس قريباً من سريرها أثناء مرضها، وهي طفلة، ويعبث بشعرها الندي بيد خرقاء! وعلى ضوء مصباح النوم يظل يصحح الواجبات حتى تحل ساعة الدواء. الموتى لايعينون على أن يلحق بهم أحد من الأحياء الذين أحبوهم. ونطقت بصوت جهير اسم أخيها جان فربما لايزال على قيد الحياة. وتمنت من أعماقها أن تعرف عنه شيئاً بالرغم من أنه لم يجب على أي خطاب منها... فأين غرق هذا الغلام الضعيف؟ لا قشعريرة الآن. لقد دخلت في موقد من الحمى الفظيعة؛ أصبحت كلها تحترق كصنوبرة صغيرة. ورأت ريحاً منتنةً مغمورة بموجة من زيد البحر لاتكاد تفارقها وتكشف عن نتنها حتى

تعود إليها فتغمرها من جديد، رآتها وهي على شاطئ قفر تكاد تنقضّ عليه سماء من النار. وبالرغم من أن هذا الوجه قد تحطم بصورة بشعة فقد كانت تعلم أنه وجه أخيها چان. ولم تكن تناجي في هذيانها إلا أخاها فلم تحب شخصاً غيره، ولم يحبها أحد سواه، وبات جسدها يحترق بالموت، وما كان قد احترق بالحب من قبل، وما تهيأت ماتيلد بسقم الوجد وفناء الهوى، لموت الأبد وفناء الجسد، ولكنه القدر قد شاء أن يكون هذا الجسد على وشك الانتهاء قبل أن يعرف سره الشخصي.

٤

بعد ذلك بساعة أشعلت الأم كازيناف عود ثقاب ونظرت في الساعة - ثم ظلت لحظة مصغية، لا الى الليل الذاهب المتجمّع، بل الى أنفاس ولدها المعبود من وراء الحائط. وبعد أن حدثت نفسها برهة تركت مخدعها وأزلقتِ رجليها الرهلتين في حذاء منزلي وخرجت من غرفتها وهي تمسك الشمعة، ولبست رداءها البني ونزلت السلم وسارت في الممشى، ثم عبرت الدهليز المهجور ووصلت الى أرض العدوة، وتسللت بخفة، ما استطاعت، ودرجات السلم تفرقع تحت ثقلها، ووقفت تصغي. ثم استأنفت سيرها، وأطفأت شمعتها وراء الباب فلا حاجة إليها، وأرهفت سمعها. وبدا مستهل النهار تحت السلم أدكن اللون. لا أنين ولا شكوى، بل صوت غريب أشبه بصوت صَنْجٍ مختنق. أسنان تصطك، وتصطك. وأخيراً تصاعد نحيب وأنين... الله وحده يعلم ماذا كان يعبّر عنه وجه غول البحر وهو يرهف أذنيه. إن عدوتها تحتضر على فراشها. وتراءى لها أن ترجع وتترك مايجب أن يأخذ مجراه. وترددت العجوز، وابتعدت، ثم عدلت عن فكرتها ولفّت أكرة الباب.

- من هنا؟

- أنا يا ابنتي.

لايكاد مصباح النوم يضيء الغرفة، فقد غلب على نوره صفاءٌ رطبٌ يتخلل الشيش. نظرت ماتيلد الى كابوسها الذي يقترب، فصاحت وأسنانها تصطك:

- دعيني، لست في حاجة الى شيء. هذه حمى خفيفة.

وسألتها العجوز هل تريد قليلاً من الكينين.

- لا. لاشيء. لا أريد إلا الراحة، لا أريد إلا أن أدور نحو الحائط. اذهبي.

- على راحتك يا ابنتي.

قالت ما عندها وأدت واجبها، فلم يبق ماتلام عليه. فلتتحقق الأقدار.

رفعت ماتيلد يديها وهي تعبر عن إشارة اللعنة ووضعتهما لحظة أمام عينيها حتى بعد أن هربت عدوتها. وأدهشها لون يديها البنفسجي. وإذا بقلبها مخبول كعصفور يختنق وأجنحته ترف بأشد ماتكون سرعة وضعفاً. وحدقت عن كثب فلم تجد إلا أظافرها الزرقاء.

وبالرغم من هذا الضيق والعذاب الأليم، فهي لاتعتقد في أية أبدية تلك الليلة وهي على شفا جُرفٍ منها. ولما كانت ماتيلد وحيدة في هذا العالم، فإنها لم تحس بأنها مشرفة على الموت. ولو كانت أحبت لاضطرها العناق الى التخلص من قبضة الوجود. فما كانت تريد الفراق طالما أنها لم تعرف الألفة والمودة. لاصوت رهيب على سريرها يذكر اسم إله جبار، ويهددها بمغفرة قاسية. لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها، فيتيح بذلك لها مراقبة هروبها المنحدر الى ظل الموت خطوة خطوة. لهذا ظفرت بالميتة العذبة... ميتة الذين لم يحبّهم أحد.

٥

- أسمعت ماذا قال لك دُلوك؟

هز دلوك تحت جسمه الضخم فسحة السلم، وبقي باب الغرفة التي تثوي فيها الميتة موروبا. وسمعت ماري دي لادوس تتنجنح. عرف دلوك بعد ثلاثين عاماً في مهنة الطب حالات التهاب حمى النفاس: فهل لفرنان بعد ذلك أن يعلمه مهنته؟ بعد إسقاطها بثمانية وأربعين ساعة لم يكن هناك مايدعو الى السهر على المريضة...

- حتى لو جعلت من يسهر عليها؟ فالمسكينة لم تمت من الالتهاب، وإنما قلبها قد خفق. ولولاه لقاومت ثلاثة أيام على الأقل. لقد صادفت قلوباً جاهدت أكثر من شهر. أتذكر حين فحصت السيدة في نزلتها الرئوية وأريتك أبهرها؟

كان زجاج السلم الكبير يكدِّر زرقة السماء، وقالت له أمه وهو يخلص منها ذراعه:

- أسمعت ياعزيزي ماذا قال لك دلوك؟

فنطق بعد أن سألته في المرة الثالثة، وهو في مظهر النائم الذي يتكلم:

- كان يجب أن نجعل من يسهر عليها.

ومد يده الى دلوك يصافحه من غير أن ينظر إليه، ثم مضى الى العمود الأسود الناشئ من رؤية الجزء الموروب من الباب، ودخل فوجد ماري دي لادوس منحنية على السرير، وجلس بعيداً عنها قريباً من المنضدة الصغيرة، وأدرك أن ماري قد انتهت من

تضفير الشعر الذي كان لايزال نابضاً بالحياة. وهزت حركة القاطرة كوباً من الماء. وسمع فرنان أمه ودلوك يرفعان صوتهما على فسحة السلم فشغل ذهنه في محاولة فهم مايقولان: ألم ير جثة من قبل؟ نعم منذ ٣٧ عاماً رأى جثة والده في غرفة الدور الأول التي أصبحت غرفة المكتب. وكم كانت أمه هادئة! ويذكر الكلمة التي رددتها وهي تقبله: «تلك حياة جديدة نبتدئ...»

دخلت أمه في يدها البرقيات، وراقبت ابنها الساكن. وتصاعدت من الحديقة أصوات راهبات دار الضيافة وسيدات أخريات، فهل يريد فرنان أن يُدخلهن؟ فأعطى إشارة بالرفض، وأخذته أمه بيدها:

- تعال بنا ياحبيبي: أنت أدرى بصحتك؛ لا تبق هنا؛ هذا يؤثر عليك.

فأفلت يده منها دون أن يلفت رأسه. ونزلت لكي تصرف الزائرات ثم صعدت. وعادت ترجوه أن يذهب لينال قسطاً من الراحة، ساردة له الأسباب التي تعودت أن تذكرها له:

- لم يعد من صالح أحد أن تتعب، فإذا مرضت فسوف يتفاقم أمرنا سوءاً...

وأخيراً تكلم وهو منصرف عنها:

- كم كانت الساعة عندما حضرت لتصغي الى الباب؟

فأجابته أنها ربما كانت الساعة الرابعة.

- وأخبرت الطبيب أنك سمعت أسنانها تصطك.

- إنني استبعدت بعد روية وتفكير أن يكون هذا الصوت ناتجاً من احتكاك الأسنان.

- فلماذا لم تعودي؟

- قالت لي إنها غير متألمة ولا تشعر إلا بالحر... وإنها رفضت كل شيء حتى الكينين، فانصرفت مطمئنة جداً.

- لم تكوني مطمئنة جداً؛ لأنك عدت في الساعة السادسة لتتأكدي من...

فلم تحر جواباً وانزعجت - لا لأنها استجوبت كما يفعل القاضي، بل لأنها اكتشفت نبرة حزن في صوت ولدها العزيز. فكانت تعلل نفسها قائلة: «لعلها ذبذبة الضمير...» وتردد لنفسها: «لا ألم عنده» ولكن أي فزع يصيبه! إن ماتيلد لم تكن تستطيع أن تطيق نظرة من العجوز على جسمها العنيد، العنيد الى الأبد. وكان لزاماً عليها أن تنزل لكتابة عناوين البطاقات، ولكنها لاترضى أن تتركهما

لوحدهما. ألقت آخر سهم في كنانتها لتحول دون وجودهما وحيدين! وقد اعتراها الخذلان مما قد أحسبت به، وتذكرت صورة للبابا في كتاب ميشليه المصوّر - ذلك البابا الذي نبش قبر سلفه يريد أن يحاكمه، ويحكم عليه، ويهين موميا ءه... لم يبق إلا ليلة واحدة حتى توضع في الصندوق، ويضم جثتها غلاف من الرصاص، ويحول دون نظرة فرنان إليها تابوت ذو ثلاثة أجزاء. ثم لن يرى هذا الوجه بعد. ولكن، ما أشد لوعته وهو يتفرس في وجهها! لم يسبق له أن نظر بمثل تلك النظرة الصامتة الحزينة. ومن جديد اقتربت منه وأخذت بيده متوسلة آمره:

- تعال!

فدفعها عنه. وابتعدت نحو الباب. وكم بدا لها هذا الوجه البعيد النائم الهادئ منبسطاً سعيداً محبوباً! نزلت مبهورة الأنفاس. وبدأت تكتب العناوين، واستعادت وهي بعيدة عن الميتة رباطة جأشها. لِمَ تذهب في أفكارها شططاً؟ أليس فرنان قد أصبح ملكاً لها دون منازع؟ ولقد حضرت إليها ماري دي لادوس، وقالت إن سيدها يرجو سيدتها ألا تنتظره للغداء فابتسمت؛ فقد كانت مطمئنة الى أن الراحلة لن تحتفظ به وقتاً طويلاً. فهي تعرف أنه من هذا النوع الذي لايعذب نفسه في سبيل جثة. ولكن لذته الكبرى كانت تعذيب أمه، لقد ارتكبت خطأ، حين حاولت إبعاده بالقوة، فلو كانت أظهرت عدم الاكتراث لكان ذلك حسبه منها... وعلى كل فسينزل للعشاء، وليكن مايكون.

اضطرت طوال النهار أن تستقبل السيدات في غرفة الاستقبال المغلقة الشيش، المجللة المرايا، المغطاة الكراسي، كن يرتدين السواد ويتهامسن فيما بينهن، من تحت النقب، ويمتدحن شجاعة السيدة كازيناك، ويتمنين أن يقدم لهن حوالي الساعة الرابعة أيسر الطعام، ولو بسكويتة صغيرة، وذلك إما لرغبتهن في أن يقال إنهن لم يضعن يومهن سدى، وإما لأن الموت قد بعث فيهن غريزة الطقوس العتيقة، وهي الرغبة المبهمة في تناول الطعام الذي يكسب الروح سكينة وسلاماً. إلا أنهن اضطررن أن يغادرن المكان وهن جائعات، ولما ودعت فليستيه آخر سيدة منهن سألت ماري دي لادوس إذا كان سيدها قد نزل، فأجابتها أن سيدها لايزال في الدور الأعلى، وأنه طلب، في الساعة السابعة بيضة مكسورة في المرق، وطلب أن يحضر له «الروب» والحذاء المنزلي وزجاجة النبيذ ارمنياك. وقالت مثلما كانت دائماً تقول عنه: إن سيدي كسائر أفراد أسرة بيلوير، يظهر الشر أحياناً ولكنه في دخيلة نفسه خير من

رأيت... وأحست ماري دي لادوس أنه ما كان له أن تضيف كلمة، بالرغم من أنها لم تلمح، في الدهليز المظلم، إلا سيدتها تصيح فيها وهي كتلة لاتبدي حراكاً:

- عودي الى مطبخك يا وقحة.

وأعطت لها الأمر بتلك النغمة التي كان بيلوير الهرم، منذ أربعين عاماً، يستعملها حين يصيح بماري دي لادوس، حين تترك البنت الصغيرة من فرط تعبها، تسقط عن الكرسي: «قومي يا بليدة» ولم يكن يطيق أن يرى خادمة جالسة. في ذلك العهد كانت ماري دي لادوس تظل تخدم واقفة حتى في وجبات أكلها، على أصبع رجلها الكبرى؛ وما كان لها حق الجلوس على الكرسي إلا في أثناء السهرة، على شرط أن تغزل؛ فكل من سبقها من الخادمات كن يغزلن لسادتهن المفارش المصنوعة من الخيوط الثخينة. والتي تكسو الآن الجسد الذي لم يعد يتألم.

تناولت السيدة كازيناف العشاء بمفردها وهي ترهف السمع، من حين لآخر، لعل درجات السلم تفرقع تحت أقدام الولد المتعب الطليح. وخيل إليها أنها تسمعه بعد أن تركت المائدة، فأخذت تصطنع وجهاً غير مكترث: إلا أنه كان صوت القطار السريع في الساعة الثامنة ، فقالت في نفسها:

- سيتخاذل في مساء غد.

وألقت رداءً على كتفيها ونزلت الى الحديقة. وكانت الريح الشرقية تقذف الى الحديقة دخان المحطة ورائحة الزيزفون والزنبق الغالبة على رائحة الفحم. وقبعت الطير في الشجر. وشخصت العجوز الى نافذة غرفة ماتيلد وقد انسكب من شيشها ضوء حزين، وقالت بصوت خافت: «غداً ستبلين يافاجرة». وأفزعت البلبل وهو قريب من شجرة المانوليا. وسكتت الصراصير في أثناء مرورها على طول البراري المتربة. وتخيلت ابنها مرتجفاً في مستهل النهار حيال جثة البارحة، له منظر غريب؛ فهي تعرف أنه يرهب الموت ويخشاه.

٦

حقاً كان منظره غريباً! كان يحملق في ماتيلد وهو ملتف بردائه القاتم، وقفاه معتمد على مسند الكرسي. وعلى المائدة الصغيرة كوب من نبيذ الأرمنياك أفرغه ثم ملأه. وفراشات الليل يتطايرن حول شمعتين، ويقرعن ظليهما في السقف. نطق مرة باسم ماتيلد ولو سمعته أمه ما كانت لتتعرف عليه، وقام فاقترب من السرير وأبعد ذبابة وقفت على وجهها، وتأمل هذا الجمال الأبدي، وردد في نفسه: يالك من أعمى! يالك من أعمى!... ولم يدرك أنه حقيقة يرى هذا الوجه للمرة الأولى؛ لأن الموت قد محا كل ذبول عليه: لم يبق شيء من تلك الملامح الجائحة الجافة للبنت البائسة التي كانت دائماً تحاسب وتحتقر وتسخر. لم يبق شيء من هذه الضحية التي صاحت وتحدت. لم يبق شيء من هذا الوجه المعوز المطارَد. فلو أن ماتيلد كانت سعيدة محبوبة أثناء حياتها لكان لها - وهي على قيد الحياة - هذا الوجه البادي المغمور بالسكينة والسلام. هذا الوجه الذي تخلص من أعباء الحياة «أعمى... أعمى...» أصغى فرنان وهو ثمل قليلاً من الخمر الى آلامه وهي تنبع من نفسه. واستقبل وهو منتش هذا الشعور المجهول، فإذا به نهر يتخلص من ثلج الشتاء الذي تجاوز حده، انتظر خمسين عاماً لكي يتألم من جراء شخص آخر. وإن كل ما يكتشفه الناس عادة في سن شبابهم قد توصل هو الى معرفته في هذا المساء! سحر قاتل يقيّده الى هذه الجثة. واقترب مرة أخرى ولمس بأصبعه هذا الخد وظل وقتاً طويلاً بعد أن ردّ أصبعه، محتفظاً بتأثير بارد لاحد له.

لم يعرف ماذا امحى من هذا الوجه. لحظة رهيبة حين بدأ يدرك أن الميتة «تتغير...» خرج فرنان وانحنى على السلم وكان الليل يضيئه، وسمع القطار الذي سمعته ماتيلد بالأمس ساعة احتضارها، وارتجف المنزل كما ارتجف في أثناء أرقها الذي شعرت فيه بخوف شديد؛ وتذكر فرنان أنه كان وعدها بتركيب ضلف لنوافذ الدور الأرضي، فاستعاد ذلك في ذهنه فأحس بطمأنينة حين تذكر أنه قد أبدى لها شيئاً من اللطف في فترة حملها. وعاد الى الغرفة. هل كان يتصور هذه الرائحة أم أنها كانت تنبعث حقاً من هذا الشيء الذي كان ينفر منه، ولا يطيق أن يذكره والذي بدت المفارش ملتصقة به؟ وفتح النافذة ودفع الضلف، ولم يَكن ممن تعودوا أن ينفروا من النوم ويتطلعوا الى النجوم. وإذا به يحس أنه قد داهم معجزة حيال صعود العوالم الصامتة، وإنه يجرؤ على اكتشاف سر. فإن القلق الذي كان يدفعه من قبل الى قص عبارات الحكم قد ازداد في نفسه الآن، فظل واقفاً بين النافذة والسرير، وبين هذه العوالم الصامتة، والجسد الميت. فيا رحمة الله على هذا الحي البائس!

ظل بجانب النافذة لايجرؤ على الاقتراب من الجثة ورشف ريح الليل المعطر فأوحت إليه رائحة العشب والظلام المدوّي، صورة من السعادة كان من الممكن أن يتذوقها، ولكنها ستظل مجهولة الى الأبد. فانقبضت يده: إنه لايرضى أن تموت ماتيلد ولو دخلت عليه أمه لصاح بها: «لا أريد أن تموت ماتيلد!» وقد يقول ذلك في نغمة الطفل أيام أن كان يطلب الى أمه وهو مريض في أن ينام الناس جميعاً، أو أن يُفك له مسامير أحد الخيول الخشبية في يوم العيد، أو أن تقدم له قطعة من الفراولة في شهر ديسمبر، أو وأن يتركوه يلعب ببندقية حقيقية تقتل وتصيب. وعندما تذكر إحدى الحكم التي كان يقصها، وهي تتعلق بأبدية الروح، ارتفع كتفاه: روح ماتيلد! وكم كان يسخر من روحها! ما أشد حماقة من يعزي نفسه بذلك! إنه يطلب أن يعيدوا جسدها إليه حياً، يريد أن يرى السرور يشرق على وجهها وهي حية. وكم كان وجهاً خائفاً حذراً! إنه لايستطيع أن يهرب من نفسه حتى في اللذة. فقد فهم آخر الأمر أن الجسد يبحث بذاته عن اللذة المدفونة، فيكتشفها خارجة عنه ممزوجة بجسد آخر نسعى الى إسعاده. أحس فرنان بأظفاره على جبهته، وصاح طائر ليلي قريب من المنزل، فتقهقر فرنان وقلبه ينبض قائلاً: «لعله الطائر الأزرق الخرافي الذي لايهبط على المنازل التي مر بها الموت ولكن على المنازل التي يقرب منها الموت. وحلّ منتصف الليل ولم يمر قطار حتى الخامسة، ولم تهب نسمة تهز الأوراق

الخاملة، ولم يتصاعد من الحقول إلا تمتمة نائمة لأحلام النبات. اقترب فرنان من الدولاب ثم ابتعد إذ رأى في المرآة رأسه المخيف، كأن في الدولاب رائحة منتنة تنبعث من ماتيلد الراقدة على بعد ثلاثة أمتار من هذا المكان. وتكرر هذا الصياح الليلي وكان قريباً جداً كأنه في الغرفة، وقد اضطر الطائر أن يرتمي على المدخنة أو ربما في داخلها! ونظر فرنان الى لوحة الحديد السوداء: لقد سمع فيها دفيف الأجنحة المشؤومة! وتراجع نحو الباب، ونوى الرجوع الى أمه مُستخذياً. كانت العجوز جالسة على سريرها في الجناح الآخر، لاتطاوع نفسها في الإسراع لمساعدة ابنها الجاحد. فقد سمعت دفيف الطائر، وقالت في نفسها فرحة: «إنني أعرفه ولن يتأخر بعد».

وبينما كان فرنان يندفع الى فسحة السلم، اقترب بصيص من الضوء لم يلبث أن أضاء السلم، وظهرت ماري دي لادوس بمصباحها مرتدية ملابس يوم الأحد ورأسها متلفع بملحفة سوداء تخرج منها شحمتا أذنيها الطويّلتان. وظنت أن سيدها يريد أن ينام. وأخذ منها المصباح ونزل مسرعاً فانطفأ في المعبر. وبلغ غرفته وخلع ملابسه وتحسس ثياب النوم، واستلقى على فراشه في الوقت الذي كانت أمه تطفئ شمعتها. وتخلت عن تقبيله؛ إذ سمعته خلف الحائط يغط في نومه. حينذاك لم تكن ماري دي لادوس معتمدة على مسند الكرسي. بل جلست وجذعها منتصب، ورسمت على الحائط ظلاً غريباً: فمها الأدرد سريع الحركة، وخرزات سبحتها في فجوة ملحفتها تشبه حبات الذرة والشعير.

٧

لبست فيلستيه كازيناف نقابها، ذات صباح متقد، ونزلت الى طريق الباب الشرقي الممتد على خط سكة حديد «بوردو - ست» ومشت وصدرها يغور الى وراء ويداها على بطنها، وذيل جلبابها يلم التراب والأقذار، وظلت تسير فترة في الطريق الفسيحة، ثم اتجهت يميناً نحو المدافن ولم تلج عتبة الموتى، ولكنها قرعت بسبّابتها باب الحارس الزجاجي، فإذا بصوت رجل عبوس، لايتوقع منها نفحة يصيح في وجهها قبل أن تسأله عن السيد كازيناف: إنه لم يحضر منذ ستة أيام تقريباً. فعادت منهوكة القوى ولكنها مطمئنة إذ أحست بأنها كسبت شيئاً من النجاح في صراعها ضد الراحلة: ذلك أن فرنان، في أحد أيام الأسبوع التالي لتشييع الجنازة، ذهب الى قبر زوجته في سقم الهذيان ودلائل الألم مما أذهل أهل البلدة جميعاً، وكان لايمضي عليه صباح من دون أن يحضر الى قبر زوجته حاملاً طاقة بسيطة من الزهر والأوراق ذات الأفرع القصيرة كالتي يقطفها الأطفال. وها هو ذا قد أصبح متعباً طريح الفراش! وقالت فيلستيه في نفسها: «هذه هي البداية» وإنما كانت راضية بتعبه مضطرة لحاجتها الى الطمأنينة. وكم كان هذا يتعبها ويقض مضجعها! إنها امرأة واقعية قد فشلت أسلحتها المعتادة في مقاومة شبح من الأشباح. ولما لم تكن تجيد النزاع إلا مع اللحم الحي فقد حيّرها أسلوب الميتة: تلك الكامنة في فرنان، التي تحتله كالحصن. وتوقعت فيلستيه بغض ابنها لها، وسخطه عليها، وأيقنت أن ميله المتواصل الى إيلامها سيزداد أضعافاً مضاعفة. لقد كان وهو طفل يضرب

كرسي أمه برجليه حتى تصيح به أن يهدأ، ولكنه الآن لا يعاكسها بشيء من ذلك، غير أنه بعدم اكتراثه والتهرب العقلي منها، كان يفسد ألاعيبها ويمنع كل مناورة من جانبها. وعندما رجعت وفتحت الباب الشرقي أحست بأنها متعبة تتصبب عرقاً تحت نير آلامها. واستنشقت رائحة غصون بالية. من شجر البقس الذي كان يحيط بمضخة الماء، حيث تنام الأتان جريزيت وهي واقفة على مسلك من مسالك الأشجار، ووخزت فيلستيه بمظلتها جلد الحيوان البالي فرمح، ثم تحرك وفي هذه اللحظة خطر لها هاجس: «إنه ماكان ليذهب، فيستعيد أحلامه في المدافن أو في الريف إذ أنه دائب التفكير في المرأة الأخرى...» ففي هذا الصباح، خرج كعادته، كل صباح، معوّج الكتف، لابساً قبعة مصنوعة من قش عتيق لازمته ثلاث سنوات، وسترة من وبر القرمل القوي الرائحة. وكان إذا حل الظهر واضطر الى العودة الى منزله جلس حيال والدته وعلى بعد منها. ولم يعد يتأثر بشيء بعد الآن. فلم يعد يعارض مايسمعه منها من محادثات كانت تثير غضبه.

أطلت الملكة العجوز، وقد زال عنها سلطانها، من فوق المنصة القريبة من نافذة المكتب حين كانت تراقب حضور ولدها. فلم تغادر ببصرها الباب الصغير وقد تركت شغل إبرتها ملقى على بطنها. ونبهها القطار السريع في الساعة الحادية عشرة أن فرنان قد قربت عودته. وما كان توقعها عودة ابنها الحبيب في كل مرة، إلا محاولة لإقناع نفسها بأنه سيضع حداً لهذا الانجذاب القاتل. ورددت الأم في نفسها «سيعود إليَّ فلن يتغير المرء بعد الخمسين...» ولم تدر أنه لم يطرأ عليه تغيير ما، فهو مايزال ذلك الطفل الصغير الرّماح الذي ربّته وتعهدته؛ إنه لايريد أن تموت ماتيلد؛ حتى الموت لم يعرقل أوامره الصارمة!

نزلت من المنصة ومايزال ابنها متأخراً، وظلت تذرع الغرفة وهي تردد للمرة المئة: «هيا بنا، لنفكر»: لقد صعدت في تلك الليلة، وقرعت بابها وسألتها عما إذا كانت متعبة فأجابت بأنها ليست في حاجة الى شيء... نعم ولكن عند عودتك الى غرفتك بحثت عن معنى الالتهاب في قاموس الطب...» وبينما هي غارقة في تفكيرها فوجئت بوقع أقدام فرنان في الدهليز، وسمعته يسأل ماري دي لادوس: «هل أعدت المائدة؟» ولما كان باقياً ربع ساعة على الغداء، خرج الى الحديقة فلمحته فيلستيه من وراء ستار وهو واقف في وسط الممر. إلام ينظر ياترى؟ لم تشك الأم أنه كان يتطلع الى غرفة شارع هجوري حيث كان ينتظره «مزاجه» يوماً من كل شهر،

وحيث كانت المناشف المخملية تجفف على حبل ممتد في الشباك. وكانت «مزاجه» تسميه البخيل الهرم؛ لأنها لم تفلح يوماً في أن تنتّزع مليما زائداً على الثمن المحدد، وكذلك كانت قصة فرنان كازيناك في الحب. خطر له، وهو يرفع بصره الى نوافذ غرفة ماتيلد: «وعلى كل فقد استطاعت خلال حملها أن تلمس مني عطفاً وحباً، كنت أقف في صفها ضد أمي، غير أنها اعتقدت أنني فعلت ذلك لأجل طفل...» أخذ يستعيد - دون جدوى - كل الظروف التي أبدى فيها عطفاً نحوها. وإنه ليذكر في سفره الأخير، يوم أن سافر الى بوردو مع ماتيلد: وما كان أشد انفعالها من جراء ما أنفقته في شراء لفائف الطفل! فقد صاح بها قائلاً: «لم تكن الأمهات في زمني يشترين شيئاً ما، وإنما كن يعددن من الشرف أن يحكن كل شيء بأيديهن!» فدلفت ماتيلد وراءه صامتة حزينة، ودخلا في مطعم أفضل مما كان يقودها إليه من قبل: الورد يزين المائدة وماتيلد تبسط منشفتها باسمة سعيدة. ويسأل فرنان الخادم: «هل الثمن محدد؟» فيجيبه: «لا ياسيدي إنه حسب الطلب» فإذا به، بعد أن ألقى نظرة غاضبة على قائمة الطعام، ينتفض قائماً ويذهب الى صالة الثياب ليرتدي معطفه، وينصرفان فيمران أمام المطعم والزبائن يتهامسون عليهما والخدم يسخرون منهما، ويتخذان طريق الرصيف، وفرنان يتجاهل رؤيتها تبكي.

وعاد فرنان ونهضت السيدة كازيناك على ساقيها الثقيلتين، فلحقت به في الدهليز قائله له:

- ما أشد إحساسك بوطأة الحز أيها العابث المسكين!

وهمت بمسح وجهه المتصبب عرقاً فأدار وجهه فقالت له:

- جسمك يتصبب عرقاً، فاذهب لتغير ملابسك. وإلا مرضت.

فلم يجبها، فأردفت قائلة:

- وقد أعددت لك الملابس على سريرك.

وتبعته الى مكتبه وهي تقول له غاضبة:

- فإن مرضت، فمن غيري يعالجك أو يعنى بك.

وأخيراً حدجها بنظرة قائلاً:

- لم يبق إلا أن تتركيني أموت كذلك.

فأفزعتها هذه الضربة فلم تحر جواباً. واخترقا المطبخ دون أن يكشفا أغطية القدور - كما كان يفعلان من قبل - ودخلا الى غرفة الطعام المظلمة ذات الرائحة القوية وقالت له:

- لم تأكل.

ورددت الكلمة في أسف مرير: «لم تأكل» ومن دأب سكان المناطق الساحلية أن يفهموا هذه الكلمة على أنه نذير بالمرض والموت. ففاقد الشهية عندهم فاقد لأثمن شيء في الوجود. فما عليه حينئذ إلا أن ينتظر النهاية.

وهنا قالت ماري ذي لادوس:

- وسيدتي أيضاً فاقدة الشهية.

ولم يكن ذلك تصنعاً منها كما كانت تفعل من قبل، حين كانت ماتيلد تدير المنزل. فكانت هي وابنها متفقين على التظاهر بالتقزز من كل صنف من أنواع الطعام حتى يجبراها على التخلي عن إدارة المنزل.

ووجدت فيلستيه نفسها وحيدة في غرفة المكتب لم يلحق بها ولدها، وحان وقت القهوة وقد تعودت أن تشربها الى جانبه على الأريكة ذات الجلد الأسود، مسندة رأسها الى كتفه يقرأان الجريدة ويتضاحكان كما يصنع الطلبة. فإذا ما فتحت زوجته الباب انفصلا فجأة وتعمدا التظاهر بأنهما يقطعان حديثاً كان يجري بينهما. ولا تنسى فيلستيه ما كانت تسألهما العدوة بنغمة مدرسة جانقة: «هل أزعجتكم؟»

- «لا لا لقد قلنا كل مانريد قوله».

هذه مناوشات كانت تستعيدها السيدة كازنياف، فتبعث فيها السرور والحياة. ولكن أين يختبئ المحبوب الآن؟ ذهب ليستلقي على فراشه؛ لأنه خائر القوى، فلم يعد قلبه وصدره يحتملان القيام بهذه المتاعب والانتقالات... ما أشد رغبتها في أن تسرع للحاق به! ولكن ماقيمة ذلك؟ فهو الآن يغلق الباب بالمزلاج كما كان يفعل مع ماتيلد من قبل.

نفذ شعاع من الشباك الموارب، فتألق على رف المدخنة إطار الصورة التي تحبها فيلستيه، تلك الصورة التي التقطت بعد شهر من الزواج يوم أن جلست الأم وولدها وكنّتها أمام مصور جوّال. وحدث قبل التقاط الصورة بعد لحظات أن هجر فرنان زوجته وانحاز الى جانب أمه. وأودعت الصورة في سجل الصور. وفيها وقفت فيلستيه وابنها في مكان ظاهر، بينما وقفت الزوجة الفتاة في الخلف مرخاة اليدين باسمة الثغر.

هذه ذكرى سعيدة كانت تدفع السيدة كازنياف الى التأمل فيها من حين لآخر. ولكنها اقتربت هذه المرة فوجدت الإطار خالياً، فأصابها الذعر وأبصرت على المائدة

المقص وسلة الورق... يالله! أحقاً تحمل السلة ابتسامتها وبطنها وأنفها الشامخ؟ انثنت لترى صورتها بين الأقذار. ياله من شقي! لقد فصل عنها صورة ماتيلد ولاشك أنه يحملها الآن على قلبه، في حافظة نقوده، ولاشك أنه يجعل لذته في عزلته أن يقرب الصورة من شفتيه الحارتين. لقد تحملت العجوز ما تحملت في الأسبوعين الفائتين، أما الآن فهي قلقة فزعة من هذا الدليل الملموس، دليل الجحود والعقوق. فحطم الغضب الجنوني في نفسها كل عقبة، وارتجفت أصابعها القبيحة وضربت الأرض بقدميها كما فعلت يوم أن صاحت في وجه ماتيلد: «لن تمتلكي ولدي! لن يكون لك أبداً!» واتجهت الى الباب، وقد أشبه وجهها الغبي المتحجر وجه المرأة التي تخفي تحت معطفها مسدساً محشواً أو وعاء من الزاج. لعله لايوجد في الحياة أنواع كثيرة من الحب، ربما لايوجد إلا نوع واحد من الحب، فقد كانت هذه المرأة في النزع الأخير من جراء فشلها أن تسيطر على ابنها هذه السيطرة الروحية التي تمكنت من نفسها فأصبحت أشد عنفاً من الرغبة التي تجعل جسمين شابين يتمازجان فيتفانيان.

دفعت الأم ضلف النافذة وهي تتمزق من الغيظ. كانت شمس الظهيرة ثقيلة على الحديقة اليابسة، ورمال الممرات تتخلل الأعشاب المتربة. وزفر القطار في بدء إقلاعه فذكّر بصدر مهموم. وأدركت العجوز السلم وهي تتلوى غضباً، وأخذت أنفاسها تضعف شيئاً فشيئاً، حتى بلغت غرفة الابن العقوق فوجدتها خالية، ووجدت في كل مكان من الغرفة زجاجات تنبعث منها رائحة البول، وشعرت بالخوف عندما رأت لون خديها في المرآة بنفسجياً. فأين تجد هذا الغادر إلا في غرفة العدوة؟ ونزلت، وركبتاها السقيمتان تنثنيان تحت ثقلها، وسارت في الممشى وعبرت الدهليز المظلم، ولم يبق إلا ممشى واحد، ثم السلم المؤدي الى غرفة الميتة القاهرة. ظلت الأم خائرة القوى بضع ثوان، ووقفت جامدة حيال الباب، كما فعلت ليلة الاحتضار وأصغت، ولكن الله هو من يدري حينئذ ماحدث في تلك الليلة على وجه العجوز المصغي فلم يعبر وجهها عن الدهشة والأمل ثم لم يتهلل بفرح جنوني، وأرهفت السمع فإذا غطيط خفيف، يتبعه شيء يشبه الزحير أو الصوت المخنوق؛ وعرفت هذا الصوت جيداً، فكم كان موسيقى لياليها الحلوة التي كانت تسهر عليها وتلتذ بسماعها، من وراء الحائط، وتستدل بها على وجود معبودها. فكانت حينئذ تسهر مصغية الى هذا النفس حتى أنه لم يكن لديها ماهو ألذ من هذا الأرق. أما اليوم فقد سرقت الميتة منها نومة ولدها العزيز، وهنا، عادت موجة من الغضب تثيرها، وأظلمت الدنيا في عينيها، واندفعت تفتح باب الغرفة.

واضطرت فيلستيه أن تغمض، عينيها فقد كانت النافذتان العريضتان مفتوحتين فتركتا لهيب شهر يونيو المتوقد يتسرب الى الغرفة، وفاحت رائحة الزنبق النابت في قوصرتين على المائدة الصغيرة في الغرفة، كما لو كانت الغرفة مغلقة. وبين هاتين القوصرتين صورة ماتيلد مقصوصة بعناية، ومحاطة بإطار مصدّف أوسع منها. ووضع أمام الإطار، بنظام، ما كان قدمه هدية للخطوبة: فص صغير من الماس وخاتم وقفاز أبيض بالٍ. وأسفل هذه البقايا جلس فرنان خائر القوى على الكرسي، ورأسه يترنح، وقد أخذه النوم من عنقه. ومازال زنبور يتخبط بالسقف والمرآة حتى اكتشف نافذة مفتوحة فتلاشى طنينه في حريق السماء.

ودب حذاء فيلستيه على أرض الغرفة، وغيّر فرنان وضعه، ووقفت، ثم خطت خطوة نحو المائدة الصغيرة فرسمت وهي تمد يديها حركة پوليوكت محطم الأصنام؛ فقد أرادت أن تبصق على الصورة، وتمزقها وتطأها بقدميها ولكنها لم تجرؤ. وسقط رأس فرنان على ذراعه الملقى على المائدة، فلم تر أمه من وجهه إلا كرة كبيرة مرشوقة بأشواك من الشعر الرمادي. وأحست بالبرد على وجهها المبلل بالعرق، وزاغ بصرها وطن الدم في أذنيها، فكأنها تسمع دوي البحر من خلال صدفة كبيرة. وأرادت أن تتكلم فلم يطاوعها لسانها، وما كانت تدري هل ماتسمعه ناشئ عن صوت صراصير أو طنين ذباب أو غليان شريانها. وإذا بيد خفية تدفعها الى السرير وتلقي بها على الفراش الذي كانت ماتيلد تتألم فوقه حتى قضت نحبها: واستلقت كالوحش، وانتظرت، ثم حملقت مشدوهة: فقد مر بها الطائر المشؤوم من بُعد، فزفرت زفرة، وابنها يغط في نومه، فيحدث صوتاً من حلق مزدحم، والخطر الداهم يدعها مرتجفة تتصبب عرقاً. وألقت الى الهيكل المقدس الذي يتبتل فيه هذا الشيخ الفاني نظرة قل فيها الحقد وعظمت الرهبة.

٨

لما حانت وجبة المساء لم يلمح فرنان أثراً لجو الخصومة المألوف وأدهشه مظهر أمه: فقد تعود أن يراها شامخة الصدر، منصوبة القامة، في مظهر الجلال والعظمة، فإذا بها الآن ذابلة كسيرة، ذات خدين مسترخيين رماديين، ومع ذلك فلم يحس بشفقة عليها، بل شعر بملل بسبب الضربة التي كان يعد نفسه لتصويبها إليها. وكان يخشى أن تتلقى هذه الضربة بالصياح والعويل، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد تلقتها ببرود لم يكن يتوقعه. فما رأته في ذلك اليوم قد نبهها الى هذه الضربة، فلم تعبأ بخضور ماري دي لادوس، تطلب منها ملاءتين لإعداد سرير في غرفة الراحلة المسكينة. فأعطت مفتاح الصيوان للخادمة وأخذت شمعتها، وقدر فرنان أنها ستتحداه في صمت. لا فلم تعد تتشدد في شيء، لم تأخذها دهشة ما، ولم تحرك ساكناً حين رأته يمر في طريقه الى غرفة العدوة بأمتعته وأسلحته؛ ذلك أنها ايقنت بالخيانة في قلب ابنها.

وما إن انسحبت الى غرفتها حتى وجدت سكوتاً غير مألوف قد بث فيها الرعب، فخيل إليها أنها تسمع ارتجاف المنزل للمرة الأولى، وتذكرت أن زوجها قد بناه أمام محطة سكة الحديد بحكم طبيعة عمله في تجارة الأخشاب المستوردة من الشمال الى المدينة. فلما أصبحت أرملة، كان غطيط ابنها في نومه سلوتها في الحياة وحائلاً بينها وبين أخطار الظلام. وما كان وقع الخطوات الخافتة، ولا هدير الجسر الحديدي فوق النهر، ولا الأنين المدوي حين يعتدل الليل والنهار، ولا شدو

البلبل بين أشجار السوسن بالذي يفوق هذه الأنفاس الراقدة. وقد اكتسب فرنان، مما أمضاه من ساعات معدودة، قريباً من ماتيلد، روحاً جديدة وأضاف قيمة الى وجوده. والآن في هذا المساء أحست بأنها غريبة بين جدران منزلها التي تضمها منذ حوالي خمسين عاماً! ومر قطار قبل قطار آخر الليل فهز زجاج النوافذ، ثم عبرت قاطرات البضاعة متتابعة لاتحدث صفيراً، وإنما يختلط هديرها بأحلام النائمين. أما المرأة العجوز فقد ظلت تقاسي النوم في المضيق الذي بين السرير والحائط، ملصقة شفتيها بالجدار، ومن ورائه ولدها مستلقياً على فراشه، لم يغط في نومه بعد. «استديري على الجانب الآخر وأغمضي عينيك، واجعلي الفضاء بين جنبيك...» وفجأة انتفضت قائلة:

- إن شخصاً يمشي في الحديقة

لا أحد... فقد هزت الريح أوراق الشجر هزاً رفيقاً فتوهمت أنه صوت أقدام، لهذا أشعلت فيلستيه ثقاباً وعادت لاتسمع شيئاً، فأطفأته، ولكنها تصورت أن المنزل الفسيح لايحميه شيء في وسط الظلام الدامس؛ فشرفاته خالية من الشيش. وخيل إليها أن وجهاً ماكراً ينظر من زجاج النافذة لاصقاً به، وأن يداً تشقه بماسة صامتة. وكيف تنال موافقة فرنان على وضع الشيش، وهي التي رفضت أن يسمح بوضعه نكاية بماتيلد؟ خير سبيل أن تذكره بأمنية الراحلة، فذلك أدعى الى قضاء الحاجة وتحقيقها، وأحست فيلستيه أن ما كانت تحس به من ضيق في هذه الليلة إنما هو لون من ألوان العذاب التي كانت تتجرعها الفتاة في كل يوم، فيالها من صدفة واتفاق! وهزت العجوز كتفيها، وزجرت نفسها، واستعادت حوادث الخادمات منذ القدم من أعماق ذاكرتها، وطغت على طفولتها الخائفة. لا! لا! فإن الموتى لاينتقمون

وها هي ذي ماتيلد تزداد عنفاً في كل لحظة في مقبرتها الثالثة على اليسار، المجاورة للحائط الخلفي، إلا أن فيلستيه كانت تسائل شبح الموت بعينيها كأنها قد اهتدت أخيراً الى عالم مجهول زاخر بالأرواح بعيد عن المظاهر. وعاودتها واقعيتها فاغتصبت ضحكة، فما هي مؤمنة إلا بما تلمسه: فقد كانت ولادتها في زمن لم تتصل فيه بلاد اللاند بباقي العالم إلا بطرق رملية. وحدث أن طرد عصر الإرهاب القساوسة من هذه البلاد، وتناولت أم فيلستيه قربانها المقدس الأول يوم زواجها. وكان أطفال هذه البلاد، حتى مستهل القرن الأخير، لايعبدون إلا الشمس القاسية،

ولايعرفون إلا القوة الخارقة لنار الإله «پنياداس» - ذلك الإله السريع الذي يعدو فلا يدركه أحد تاركاً خلفه عدداً عظيماً من المشاعل.

تأخرت قليلاً في نومها إذ أنها لم تظفر بالنوم إلا عند الفجر. ونزلت فرأت على الصندوق الخشبي عصا فرنان وقبعته، فلماذا لم يخرج؟ أكدت لها ماري دي لادوس أنه لايزال نائماً. وشخصت السيدة الى النوافذ فرأتها مغلقة، فثبتت بصرها عليها وهي متألمة كما لو كانت الراحلة حية تضم فرنان بين ذراعيها. وهمست قائلة: «أنا مجنونة»، فما كانت الأم تحس بمثل هذا الشعور يوم أن كانت ماتيلد على قيد الحياة. ورددت في نفسها: «أنت تعرفين جيداً أنها ليست هنا...» هي ليست هنا، ولكن ذلك لم يمكنها من أن تستأثر في فراشها بالشخص الذي هرب منها وهي على قيد الحياة. ولم تذكر فيلستيه أنها تألمت يوماً بمثل هذه الحالة المريرة اليائسة، حتى في اليوم التالي من الزواج، كانت تحس بأنها مؤمنة بانتصارها. فقد حدث بعد أسبوع من زواجهما وكانا يتنزهان في بيارتس أن أرسل إليها خطاباً أثلج صدرها وملأها غبطة حتى إنها أعادت قراءته مرات كثيرة، فحفظت منه أجمل عباراته: «... أنت على حق؛ فالأم وحدها هي التي تستطيع أن تفهم أي نوع من الرجال أنا، وكل النساء الأخريات غريبات عن نفسي، يعتقدن أنهن يحببننا ولايفكرن إلا في أنفسهن، فلذاتهن أولاً ثم سلامتنا. ويجدن من الصواب أن ننفق بغير حساب في سبيل أحلام سخيفة. وأكثرهن إلحاحاً هن اللائي كن يمتن جوعاً قبل الزواج. هل تذكرين هذا الفندق القريب من محطة سكة حديد بايون الذي لم يكن فخماً جداً ولكنه صادف هوى في نفوسنا؟ لم ترض ماتيلد أن تقيم فيه؛ لأنها أدّعت أنها رأت فيه بقة ميتة، وأن الدلو كان كريه الرائحة، فاضطررت الى الإقامة في إحدى الفنادق البغيضة لديّ، فهناك جم غفير من الخدم لايحبون أن يقضوا خدمة دون نفحة، ويهزون أكتافهم مهما أخذوا من النفحات ولو كان عشرين سنتيماً! وحسبتني ماتيلد بخيلاً. وهي امرأة لاتتحدث إلا عن نفسها فلا تعنى بأي شيء يتعلق بي، وأنا الذي كنت أشتكي من العناية الفائقة التي كنت تحيطينني بها! أؤكد لك أنها تسخر من حالتي الصحية، ولم يكن لها يد في الحفاظ على صحتي وعدم إصابتي بمرض، فهي تُحدث في عربات القطار تيارات هواء قاتلة، وهي تصحو في الليل أثناء نومي لتفتح النافذة. ولا داعي للقول إن آلام كتفي قد تنبهت. إنها دائبة على السخرية،

تنتقد عادات أسرتنا وتزعم أن عدم الاغتسال في المساء شيء قذر - وهي لاتدري أن الاغتسال لايوازي تعبه، مادام سيعاد في الصباح التالي. هذا قليل من كثير أتحمله ولا أستطيع أن أعترف لك به. لاتخافي شيئاً ياأماه، فابنك يؤدي واجبه حتى النهاية».

وفي صباح يوم قائظ، يشبه أيام هذا الصيف، وصل هذا الخطاب ليغمر الأم، هذه الذئبة الهرمة، بالقلق والسعادة. يالها من ذكرى جميلة، ذكرى الأسابيع التالية لذلك! لاحظت ألف إشارة تدل على انفصال يزيد يوماً بعد يوم. وحدث أن قال فرنان لأمه، في اليوم التالي لليلة لاتزال أسرارها غامضة، وهو شاحب اللون: «ستنصبين سريري في غرفتي القديمة...» كانت تتوقع هذه الفرحة وإن لم تكن بهذه السرعة. وأصبحت ترى نفسها في غرفة مُهَوَّاة جالسةً على رأس سرير طفل ضيق. وقد فرشت ماري دي لادوس عليه الملاءات ذات رائحة النعناع والماء الجاري. أما اليوم... فوا أسفاه! لقد بدّدت الشمس الضباب، وخلت الحديقة من العصافير اللهم إلا من صرصور. وانصفقت ضلفة النافذة وكانت تغلقها ماري دي لادوس. وهبت ريح الجنوب الملتهبة وهي تحمل رائحة الصنوبر المحرق، ولم يبق مناص من أن تحمرّ السماء وتكفهر بالدخان في منطقة اللاند. وباتت الأرض المعذبة، من لحظة الى أخرى، تزداد عطشاً. والكلب پليو يفحص بقدميه وأنفه ليحفر حفرة يبترد فيها. وسمعت فيلستيه طنين دمها في أذنيها كما حدث لها في اليوم السابق، وتوالت ضرباته، وهي ساكنة، فربما كانت حركة منها إشارة الى الموت. وهمهمت كالمجنونة بكلمات، فرفع پليو أذنيه وظن أنها تحادثه وتصورت أن جسد ابنها ملقى على الفراش الذي كانت عليه جثة ماتيلد فانتفضت فزعة، ودلفت الى السلم الملتهب محاطة برائحة زهرة الغرانيوم وأصوات الضّباب العاوية. فلما وصلت الى الدرجة الأولى من السلم انفتحت الشرفة، وظهر فرنان كازيناڤ يقول لها:

- المائدة أعدت يا أماه.

كان مايزال على قيد الحياة واقفاً تحت الشمس المحرقة تخفي واجهة قبعته المنخفضة. فشعرت العجوز، على ثقلها، كم هي خفيفة وهي تصعد الى المحبوب الجامد الذي لايتحرك! إنها فرحة قصيرة: ونظرت إليه وهو جد قريب منها فرفع قبعته لكي يحييها، فكتمت صيحة حين رأت ما أصاب وجهه من تلف. بأية قوة

تجذبه إليها الراحلة! شفتاه أشد بياضاً مما لو كان شرب خلاً. بصره مغشى بالدم كعيني كلب مُسنّ... ونظر هو أيضاً الى والدته وهو جالس على المائدة. ولاشك أن كلا منهما فزع من الآخر حين جلسا يتناولان وجبة الغداء وجهاً لوجه، وظلت لاتغادره نظراتها بينما ثاب هو الى حالته ينشد رؤيةً ماثلة في دخيلة نفسه لامنصرف له عنها. وصاحت ماري دي لادوس: لقد اشتعلت النار في جهة لانديراس ولكن ناقوس الكنيسة لم يدق لأنها حدثت في مكان ناءٍ عن القرية، - وما كان أي ناقوس بقادر على أن ينزع فرنان من ذكري ليلته الأولى في الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد.

٩

قضى في بادئ الأمر فترة من الزمن أحس فيها بحلاوة الراحة، تحت أجنحة الستائر البيضاء المبهمة المثبتة بسهم من الخشب. كانت النوافذ مفتوحة، والليل يتنفس فيها كما يتنفس الكائن الحي. لاشيء يذكّر الآن بالسهر حول الميتة ولا بهذا الطائر الخرافي. ولكنه أصبح يحس وهو مستلق على ظهره، وبصره مغلق، ويداه قابضتان على الملاءة، ورجلاه ممددتان كما كانت ماتيلد في حالة موتها، أصبح يحس بأنه يتدفق بين لجتين نحو هاوية من الراحة لانهاية لها. فهي ماثلة حياله، لا في الغرفة ولكن في قرارة نفسه، ممتزجة بلحمه، لحمه اليقظ الذي يذكره بليالي العرس. وتنبه تفكيره شيئاً فشيئاً وانحصر في لحظة من الزمن شعر فيها بجسم ماتيلد الخائف لاصقاً به. وبث مارآه في نفسه الشفقة والسخرية معاً، فهز رأسه وتنهد بصوت جهير. إنه، كسائر أسرته، بل كأكثر الرجال، لابد أن يموت دون أن يعرف ماهو الحب. ولقد لعب القدر هذه اللعبة الغريبة بأن أيقظ في هذا الرجل الهرم مسارب دفينة في أعماق سحيقة! وها هو ذا الينبوع المليء بالطين يفسح فيه طريقاً بطيئاً. لم يكن يعرف ماهو الحب فقد عاش آباؤه عشاقاً غيورين لأشجار الصنوبر والكروم. وأراد أبوه، نوما كازيناف، أن توضع على قبره قطعة من الطين الخصب لأرض كان يؤثرها على سائر أملاكه. وعندما فكر في أن يخطب امرأة، سأل صديقاً له كيف يستغلّها. وكان الزواج يضمن لكل هؤلاء الغابرين استمرار الملكية فضلاً عن تنمية الثروة، وقاوموا الموت الذي لامفر منه بفكرة تخليد الأسرة، فكان الولد الواحد

منهم يكفي دائماً لبقاء خيط دقيق من الحياة، يحمل التركة التي تزيد شيئاً فشيئاً حتى نهاية الوجود بما يفيده الزوج من أموال الزوجة والوراثة. ولم تفلح أية عاطفة في أية لحظة من حياة هذه الأسرة في أن تصرفهم عن هذا المجرى الهائل الجارف. وكانت النساء جميعاً، سواء أكن من آل پيلوير أم من آل كازيناف من اللاتي يهمسن للزوج: «أسرع». ومع ذلك فلابد من أن تظهر يوماً ما على حلقة من السلسلة الحية نقطة من الصدأ ظاهرة تعمل على قرضها، وتقطع بين ماضيها وحاضرها. فويل لمن يخلف بعد! يالها من قلوب شقية لم تولد بعد! ماذا ترثون مني أيها الأطفال! فما أقسى ما أظهره فرنان لأمه من خصومة صامتة! ومع ذلك فإنها أمه التي ورث عنها شعلة الحياة ونبراس الوجود؛ ولكن في الوقت نفسه كان للأم غيرة حنون تحول دون تقوية هذه النار المجهولة وتنميتها في نفسه؛ جعلته أمه عاجزاً حتى لاتفقده، ولم تكن تسيطر عليه إلا لأنه قد تجرد من كل شيء وربته على أن يحذر من المرأة وأن يزدريها. فقد كان حتى الخامسة عشرة من عمره لايعرف إلا نوعين من النساء: «امرأة تكبلك بالأغلال» و «أخرى تسبب لك الأمراض». غير أن هذه العقبات لا تقف بطبيعة الحال في سبيل شخص يريد الحب، إلا أننا لاننسى أن فرنان من ذرية أولئك الفلاحين الذين يشاهدون في الطرقات، في أمسيات أيام السوق، أذرعهم مسترخية، وأيديهم خالية، سائرين كالملوك في منتصف الطريق، تتبعهم نساؤهم متعبات، يحملن سلالاً، تنوء الحمير عن حملها، ثم نما كبرياء فرنان نمواً مستمراً فغدا من هؤلاء الشبان الذين يؤمنون إن من الصعب أن يظفر المرء بإعجاب المرأة إلا إذا قدم لها ثمناً، «وإن من تخضع لهم النساء دون مقابل إنما ينفقون في سبيلهن أكثر من غيرهم، أما أنا فإني أقدم لها الثمن ولا داعي للورد والهدايا والتكاليف الجوفاء».

غير أنه الآن، يستلقي في الدجى على سرير ماتيلد، ويشاهد نهاراً رائعاً محرقاً في ممر الجنوب ويرى، من وراء شجيرات الحناء الطنّانة بأسراب النحل، هذا الجسد الغض يلوح بينها... ألا تعتقد، إن كان لابد أن تتسلح ضد أمك، أنك تجرأت على تفريق الغصون وجذب هذه الفريسة الجسدية الى نفسك وهي تفوح برائحة العسل؟ حقاً كان جوع التشفي يثيرك قبل كل شيء؛ ولكن هذا الجوع قد أخفى جوعاً دفيناً، وإنك لتهتدي إليه في الوقت الذي لايسمح بإشباعه حين تكون فريسة اللحم المعطرة قد ذابت وأصبحت ذلك الشيء البشع الذي لا يغدو له اسم ولا رسم...

ونهض وطاف في الغرفة عاري القدمين يتعثر بالأثاث وقال بصوت عال: «إنها كانت تحبني لأني كنت أعذبها...» وهز رأسه الضخم وزمجر قائلاً: «لا. لا ليس هذا بحب...» وتقبض وجهه يريد أن يبكي كما كان يصنع في طفولته. وجمد لحظة وقرض أظفاره وقال: «رجل آخر؟ آخر؟...» ولم تأخذه الغيرة حتى في هذه الساعة؛ لأن كبرياءه المتناهية كانت تحميه. ماذا؟ رجل آخر في حياة ماتيلد؟ كان على وشك أن يتألم ولكنه تذكر ما كانت تردده أمه مائة مرة: «هي أمينة لانستطيع أن ننزع هذه الصفة عنها، هي لاتملك إلا هذه الصفة، وتملكها فعلاً...» وأردفت قائلة وهي تنوه بالسيدة كوستو التي أنجبت ماتيلد: «في هذه المرة فقط لايمكن أن يُقال إن الكلب الأمين يُطرد من فصيلته». فلم يكن يعلم فرنان أن هذه العجوز، عندما امتدحت كنّتها كانت تشير الى يوم تناولها الغداء عند بعض نساء أسرة ميرليه عقب العودة من حفلة عرس. وكان يجلس على شمال ماتيلد موظف في الكلية قيل إنه شاعر. وجلس يُدلي بنصائح الى إحدى آنسات ميرليه وكانت شاعرة أيضاً. وبدا لفيلستيه كازيناڤ أن ماتيلد، في أثناء تناول الطعام، تتشرب كلمات هذا الفتى الأسمر الجميل. ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعتمل في نفس ماتيلد في ذلك الوقت من تراخ وتهاون أو عنصر خفي أو ميل غير محسوس، نحو هذا الرجل الذي أخذ يخفض من صوته حين أنشد بيتاً من الشعر في جلبة الوجبة المنفضّة. وتضاحك بعض سكان اللاند، فشوهت الضحكات وجوههم. أما الشاعر فلا شك أنه كان يحلم في ذلك الوقت بقصة غرام كالتي يعرفها في بطون الكتب... ولكنه بعد أن قدمت القهوة، ألحت عليه فيلستيه، في غباء، أن يسمعها قصيدة. فرفض، فرجته أن يقبل، على الأقل، كتابة بعض أبيات في مفكرة كانت كنتها تنقل فيها قطعاً مختارة من الشعر. ومنذ ذلك الوقت تنبهت ماتيلد: إذ لم تكن تعرف فيلستيه كيف تخفي تدبيرها وكم كانت كنتها تفخر بأنها «تسمع دائماً وقع قبقابها الضخم وهي مقبلة من بعيد». فلم يعد ينال منها الموظف لحظة أو التفاتة. ولما حضر لزيارة آل كازيناڤ، رفضت ماتيلد أن تنزل الى غرفة الاستقبال، مما جعل فرنان ينام نومة هادئة، فإن الفتاة البائسة لم تكن تعرف كيف تكسب أرقام النجاح أو تزيح عن نفسها الضربات الموجهة إليها، ولم تخن زوجها في سرها وإعلانها.

لم يطل التفكير في مثل هذا الأمر، ونظر، فرأى حياته أمام بصره صحراء جرداء، فكيف استطاع أن يعبر هذه الرمال الفسيحة من غير أن يموت عطشا؟ ولكنه

ما كان يحس بمثل هذا العطش خلال السنين الغابرة، وها هو ذا الآن يشعر بالعذاب، وقد ماتت ماتيلد قبل أن يعرف أنها كانت ظمأى، ماتت ولكنه لم يمت. وخطر له أن نبعا جف، ولكن آلافاً من الينابيع المجهولة منبعثة متدفقة، فما أيسر أن يحل شيء محل ماتيلد. لأول مرة يذوق فرنان طعم الحب، لهذا فهو ثائر على هذا السراب الذي يغمر بالظلمات الكون بأسره حتى يغمر بالضوء شخصاً بمفرده. إنه طفل عجوز فاسد تعود أن يستغل كل شيء في لذته، ويستفيد من كل شيء في حياته، لهذا ردد في نفسه أن ماتيلد كانت فرصة سنحت لاكتشافه اللذيذ، فلماذا لايستفيد به مع امرأة أخرى...؟ وأية أخرى؟ واستعرض في مخيلته تلك المناشف وهي تجف على نافذة تطل على شارع هجوري... أية أخرى؟ ففي عالم دقيق من حياته المنحطة، في هذا الشرك المنصوب، في هذا النسيج اللزج الذي نصبته أمه من حوله مدة نصف قرن لكي تحميه، وهو كالذبابة الكبيرة المصيدة، يتخبط فيها ويتقيد بها، في هذا كله أشعل فرنان ثقاباً وتأمل نفسه وهو يرفع الشمعة أمام المرآة. حقاً إن العبادة تخلق الصنم. ولعل ماتيلد، ماتيلد بمفردها هي التي كانت تستطيع أن تتعلق بهذا الإله الهرم الغضوب الذي خلقته أربعون عاماً من عبادة الأم. إذن لقد سبق السيف العذل! واقترب من النافذة وشم رائحة الأرض المقهورة، فعرف أن بعض قطرات من المطر سقطت على الأرض، فانبطح على أرض الغرفة وثنى ذراعيه تحت وجهه، وظل كذلك حتى ألجأه التعب المرير الى الارتماء على السرير. وأخيراً أنقذه النوم وتنبه أول سرب من العصافير فلم يوقظه، وظل في نوم عميق كأنه جثة هامدة.

١٠

في وجبة الغداء التي تلت هذا المساء، جلست فيلستيه كازيناف أمام ولدها الشيخ، وأصبحت، لأول مرة، لاتفكر فيه على أنه ملكية استولت عليها امرأة أخرى، وهي تجدّ في رده إليها مهما كلفها الأمر. إلا أن حبها قد بدأ يشبه حب سائر الأمهات، الذي لايصر على شيء بدلاً من الذي يعطيه. هذه العجوز الصامتة تجبر نفسها على الأكل، وتعصف في قلبها العاطفة المنهزمة التي قبلت أخيراً أن تتخلى عن حيازتها المقدسة: ليكن سعيداً قبل كل شيء! ولو كان في يدها السلطان لنادت ماتيلد من شاطئ الموتى، فإن نشوة التنازل قد كشفت لحبها مظهراً فتنها وأعجبها. تلك غريزة الحب الذي لايريد أن يفنى. عندما تزول أرضه من تحت قدميه، وتنهدم سماؤه المألوفة لديه، فسرعان مايخترع الحب سماءً أخرى وأرضاً أخرى. تلك ساعة يهمس فيها المبغَض للذي لم يُعد يحبه: «لن تراني بعد، لن أثقل عليك، سأعيش في ظلك، وسأحوطك بحماية رفيقة لاتحس بها». هكذا كانت فيلستيه كازيناف عند نشوة انهرامها تلقي الى عاطفتها النهمة بالتنازل عن هذا اللون من الحب الذي يمدها بالغذاء. وشقت الأم السكون بنغمة توسل قائلة:

- أنت لاتأكل ياعزيزي. يجب أن تأكل.

فأجابها دون أن يرفع رأسه:

- وأنت لاتأكلين.

وأضاف بطبيعة تربيته المدللة:

- لا أستطيع أن آكل وحيداً حيال شخص ينظر إليّ.

- لكن... نعم ياعزيزي: إني أشعر بجوع شديد.

وبالرغم من أن حلقها كان منقبضاً أرادت ابتلاع لقمة. وبعد أن ترك المائدة، ونأى متجهاً نحو جناح العدوة، نادته قائلة:

- أريد أن أحدثك ياطفلي.

فتردد لحظة ثم تبعها الى المكتب ساخطاً وقال لها:

- ماذا تريدين مني؟

ووربت ضلف النافذة ونظرت، فلم تتمالك أن تهمس إليه:

- إنني قلقة من أجلك، فالحياة التي تسير فيها لاتفيدك شيئاً. إنك كما تقول ماري دي لادوس «تأكل من دمك». فلابد أن تجد مايلهيك... أن تقابل هؤلاء القوم.. أنت في قوة سنك ونحن على بضعة أشهر من انتخابات البلدية.

فزمجر قائلاً إن كل شيء قد انتهى منذ زمن بعيد كما كانت تحب. وظلت صامتة، فسألها ما إذا كان هذا كل ماتريد أن تقوله، فأمسكت بذراعه وقالت بحرارة:

- لا أريد أن تلقي بنفسك الى التهلكة. لن أتركك تموت...

- كما فعلت بالأخرى؟

فصاحت أن لاشأن لها بموتها، ولاشيءَ كان يدل على هذا الالتهاب. ولماذا لانصدق كلام الطبيب دلوك أن لاداعي للسهر عليها؟

- ومن جهة أخرى فقد ذهبت لرؤيتها في تلك الليلة.

- أعلم ذلك.

- وقرعت بابها وسألتها هل هي متعبة، فأجابتني بأنها ليست في حاجة الى شيء، أضف الى ذلك أن فرصة علاجها لم تكن قد فاتت: فقلبها هو الذي خانها كما قال دلوك مائة مرة. وما كنت أنت ولا أنا بقادرين على أن نصنع شيئاً من أجلها. كان من الممكن أن تعيش عدة أيام أخرى، لو أنها كانت مصابة بالالتهاب وحده، ولكن زوجتك كانت مريضة بالقلب.

أرادت أن تقنع ولدها وتقنع نفسها كذلك، وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم رفعت صوتها كأنها تريد أن يسمعها شخص غير مرئي يسترق السمع. ونأى عن الباب قليلاً وهي تتحدث، ثم غطى وجه بيديه وصاح قائلاً:

- أنت قتلتها، أنت تسببت في قتلها يوماً بعد يوم.
فاحتجت غاضبة وقالت:
- هذا غير صحيح، كنت أدافع عن نفسي وكنت على حق. وعلى كل فقد كنا شخصين اثنين!
- ماذا تريدين قوله؟
- من منا نحن الاثنين أساء إليها إساءة أشد؟ أجب!
ومرق فيها الغضب كشعلة من النار، فاحترق كل ما كانت تتمناه منذ هنيهة من التنازل والتسامح. ولم يعد هناك مجال للتضحية، وأصبح همها أن تنتصر على الولد الثائر كما كانت تفعل معه من قبل، فظلت تصيح:
- إذن يابني فلتعلم أن أمك قد احتملتك كثيراً، وها هي ذي خمسون سنة ألازمك فيها ملازمة الظل. إنني أمك، ومع ذلك فإني أسائل نفسي كيف لا أزال على قيد الحياة. ولما أن جاءت الأخرى إليك. آه! البائسة! كنت على يقين أنها لن تبقى معك طويلاً. إنك لم تكمل معها عاماً...
- اسكتي! لاتزيدي كلمة
وتراجعت حيال وجهه الأغبر ويده المرتجفة المرفوعة. وظل يقترب منها فاستندت على الحائط وردت على المجنون بابتسامة، كأنها تتحداه: «اضرب في البطن».
ولكنه توقف فزعاً مما كان على وشك أن يحدث. وأفاق فنظر الى العجوز وهي مبهورة الأنفاس، أمه التي خرج منها وتربى في أحضانها. ونظر إليها برهة، وانبثق حنان الطفولة الخفي في صيحة بائسة كأنه يحطم غلافاً متحجراً.
- أماه!
وبما أنها كانت قد انهارت فوق الأريكة، فقد أسند رأسه على كتفها الظاهر فعاد الى ملجئه الحي يكمن فيه، فما له من ملجأ آخر في الوجود يلتجئ إليه منه! مثلة كمثل رجل يئس من الحياة فأراد أن يهجر الأرض فلم يجد مهرباً منها إلا إليها فاستلقى عليها، وخدش بها وجهه ونسم من جوفها الظلام. هكذا كان هذا الرجل وهو يضم الى آخر طاقة فيه أمه العجوز. ولبثت هي خائرة القوى، محطمة تتذوق سعادة هذه اللحظة وجفونها مغمضة، وهي تعلم أنه سيثوب عاجلاً الى نفسه وينصرف عن حنانه. وأيقنت أن ضعفه الوقتي سيكون لها مصدر حزن جديد. آه، كم تمنت أن تكون هذه اللحظة أبدية! غير أن ذراعها تتخدر تحت عبء رأسه المتثاقل. ولكن أليست

هي أمه التي سهرت عليه وتعذبت من أجله في ليالي الشتاء القوارس أيام كان لايستطيع أن ينام إلا وهو ممسك بيدها، فتظل ساعات طوالاً تبسط إليه ذراعها، خارج السرير، وتترك يدها لهذا الجلاد الصغير، ولاتغادر شفتاها جبهة ولدها الشيخ وهي تشمه كما تفعل السائمة. لا. لا لن تثيره مرة أخرى. هاهي ذي الآن تطرب لهذه السماء الجديدة التي لمحتها. أنها لاتطلب شيئاً أكثر من ولدها الموجود بين يديها. إنها ستعيد إليه لذة الحياة، وستلده مرة أخرى. كذلك كانت تسلم نفسها الى الخداع يأن حبيبها يستطع مثلها محاولة أن يولد من جديد. ولم تكن تفهم أن هدف عاطفتها الخاصة كان هنا، حياً، ماثلاً بين يديها، لاصقاً بركبتيها، ولم تكن تطلب أكثر منه لكي تتحدى به القدر. أما هو، ذلك الولد الفاسد، فقد كان في خلال نصف قرن يحطم اللعبة بعد الأخرى. وفقد اللعبة الأخيرة في اللحظة التي اكتشف فيها أن ثمنها كان غالياً لايقدر. فانظري إليه، أيتها المرأة البائسة، ها هو ذا ينهض فيجفف بظهر يده جبينه الذي يتصبب عرقاً، ثم يتباعد فتسمعين خطواته يتلاشى وقعها في المنزل الهامد.

11

وتلت ذلك فترة تراخٍ استمرت بضعة أيام، همد فيها كل شيء، حتى السماء توقفت عن نشاطها، فهبت عواصف طوال الأسبوع، على الريف المهجور (وكان هذا فصل تعرض الشمس لأشجار الكروم). وكأن القاطرات قد أصابها من هذا الخمول شيء، فغدت تشق طريقاً متعباً في أيام القيظ، فقد قيل إن الحرارة مددت قضيباً بين بلدتي لاريول وطونيا. وأخيراً، في ذات ليلة، تنبهت الأم وابنها الى تهامس أوراق الشجر، وقد ارتشفت بلهفة أول الغيث حتى أن أكثر من ساعة قد مضى قبل أن يمس المطر وجه الأرض المحترق مساً يشق الأرض ويصعد ريحها... ريح من الرغبة، لم تبلغ حد الإشباع بعد، إلا أنها قد استحالت بهجة وسروراً. وفي المناطق النارية تتفق أهواء الرجال مع قوة السماء، وقد تهدأ معها. ففي خلال وجبات الطعام لم يكن فرنان معرضاً عن أمه إعراض المبغض بل كان يصطنع التوقير والعناية، ويبذل وهو على المائدة كل رعاية جديرة بسيدة عجوز، فلا يتركها إلا بعد شرب القهوة، فصارت من شدة حذرها واحتراسها لاتحاول الإمعان في هذا الفوز الذي أحرزته والرضا الذي نالته، ورددت في نفسها: «سأنقذه...» ولكن وا أسفاه! فمهما كانت معاملته لها بالحسنى، فإن جرحه من أجل عدوتها لايزال ناغلاً يؤلمه.

كان يحيط بهذه الرواية ذات الفصول، أشجار باسقات، كالخزامى، والحور وجوز الهند والجنار والقرو وقد تمايلت أوراقها المثقلة بالمطر، تحت سماء لينة. وفي هذه الأشجار، استطاع الابن والأم أن يحتميا من النظرات الأجنبية. وقد جرت العادة أن

كل مايقال عن القرية وعن أقاويلها لا يكون صحيحاً إلا في محيط الفقراء الذين يعيشون، أبوابهم متلاصقة وحيطانهم متجاورة. أما هذه الممتلكات المحاطة بالأسوار، المحاصرة بالأشجار، فلا شيء أقل منها تعرضاً للأنظار وأحسن ملاءمة للألغاز، الى حد أنه يبدو أن الذين يعيشون فيها لا صلة لهم بالخارج، اللهم إلا ما كان يربط بعضهم ببعض أو يربطهم بالسماء. أما في المدينة فقد اعتقد أهلها أن سلوك آل كازيناف سليم لاغبار عليه: كلما ضعف تأثرنا بفقد فرد من الأسرة ازدادت مظاهر حزننا الخارجية. وهكذا كان يؤول اعتكاف الأم وولدها في المنزل.

في خلال شهر سبتمبر الزاخر بالمطر، خرج فرنان ذات صباح وعلى كتفيه حرملة، وعلى رأسه قلنسوة تغطي شطراً من وجهه، وأخذ الطريق الضيقة التي تفصل الحديقة عن سكة حديد بوردو - ست. فقرأ على عربات البضاعة المخزونة في ذلك المكان: «رجال ٣٨ - ٤٠». ولم يدرك ماتنطوي عليه هذه الكتابة من فأل مخيف. ثم عاد الى منزله فتركته أمه حتى يقترب منها، وتفرست في وجهه المستغلق، ولاحظت مظهر تراخٍ وهدوء يزداد يوماً بعد يوم، فاعتقدت في بادئ الأمر أنه يتظاهر بذلك. وهل كان في استطاعته أن يحتفظ بهذا التغير ذلك الوقت الطويل؟ لابد أن سلوة قد أتت إليه من جهة أخرى - سلوة مجهولة. إن صحته قد تحسنت مرة أخرى دون أن يكون لها يد في ذلك التحسن، وهي التي طردت فيما مضى الخادمة؟ لأنها زعمت إنقاذ فرنان من الحمى القرمزية التي كان قد أصيب بها. واليوم تنقذه الميتة ولا سلطان للأم على طردها. وهكذا انهار عمادها الأخير: فهي لم تعد عليه بنفع، ولم تكسبه خيراً، ولم تذكر، منذ بدء طفولته التي مسختها الأهواء، أنه ابتسم كالطفل، بمثل هذه الابتسامة المبهمة الوديعة. وكم رددت الأم خلال خمسين عاماً: ماذا يحدث لك بدوني! من حسن حظك أني على قيد الحياة! فإذا ما فقدتني!» وا أسفاه! لقد أصبحت الآن أمام عينيه شيئاً لا قيمة له، ولا غناء فيه، وقد استطاع بدونها أو قل بالرغم منها، أن يستعيد هدوءه. إن العجائز مؤمنات بحاجتنا إليهن، وأن الله، لذلك، قد أطال في أعمارهن. فمنهن من تموت يأساً من كونها أصبحت لاتجدي فتيلاً، ومنهن من ترتد الى الحياة، بعد أن أوشكت على الموت؛ لأن ابنة أرملة أو أطفالاً يتامى يصيحون بالنجدة والمعونة. وهذه فيلستيه قد عجزت عن القيام بخدمة لولدها، وهل استطاعت إسعاده حين كانت تسيطر عليه؟ وناوأها سكون الليل فلم تستطع أن تنام، وأبرمها وجود الغرفة الواقعة خلف الجدار خالية

خاوية لاينام فيها الولد العزيز. وخطر لها: «إن أية حياة أخرى ستقضي عليه، وسيموت إذا ما استسلم الى نفسه...» ما الذي كان يدفعها الى هذا القول؟ الهواء البعيد يعدو في منطقة اللاند، ويصل الى الضفاف النائية المجهولة حيث كانت أبعد أشجار الصنوبر تنأى عن أعناب سوتيرن المقدسة. وهناك توقفت الريح، لاتعرف لها وجهة، ثم انقضت على أشجار الحديقة فجأة، فاهتزت كلها مرةً واحدة.

وعلى كل، فلم يبق لها إلا عمل أخير تسديه الى الحبيب. إن الميتة التي كانت سلوته قد أثرت في عقله، لا في جسمه المعذب. ذلك الجسم الذي هو بضعة من أمه وكان ملْكاً لها، فيجب أن تُعنى به. وقد استشارت الطبيب دلوك خفية بعد أن رفض فرنان أن يقابله، وأشار الطبيب أن يتخلى فرنان على نفوره من الطعام بالإكثار من تعاطي أطعمة مشبعة بمقادير من الدم. وحرصت فيلستيه منذ ذلك الحين على أن تصحبه معها الى المائدة حتى تشجعه على الأكل. وبالرغم من أن حالة شرايينها كانت تلزمها بنظام خاص للأكل إلا أنها كانت تملأ جوفها لحوماً حمراء. وكانت في كل وجبة تدور هذه المناقشة:

- لم تأكل ياعزيزي.
- وأنت أيضاً.
- ولكن ألا تراني آكل؟ خذ قطعة من اللحم.
- سآخذ منها إذا أخذت مرة أخرى.

ليس الاستشهاد قاصراً على التضحية في سبيل الرفعة فحسب، بل قد يضحي المرء بحياته بأن يختار لنفسه أحط أنواع الموت.

لم تتعود أن تعيش وحيدة: طافت بعد الظهر في المطبخ ولم تمنع نفسها من أن تبوح الى ماري دي لادوس.

- لم يكن يطيقها وهي على قيد الحياة، فلا معنى لأن يحزن عليها بعد الموت.
- حقاً ياسيدتي!
- ويتحدث عنها أمامي بقصد تعذيبي. ولقد أخطأت حين تركته يعرف أنني أضيق بذلك الحديث ذرعاً وأتمزق منه غضباً.
- حقاً ياسيدتي!

كانت ماري دي لادوس تطحن البن وعيناها كعيني كلبة تبسط ذراعيها ولاتغادر بصر سيدتها خوفاً من أن تتأخر عن إظهار الاستحسان لحديثها. فكانت

ابتسامة الطاعة على وجهها دائماً، وجه العبيد الأرقاء. ومع ذلك فقد ظلت خرساء لاتتكلم حين قالت لها السيدة:

- إذا مات المرء استغرق زمناً طويلاً في موته، ولكن كما يقال، سرعان مايذهب الموتى.

سكتت ماري دي لادوس، كأنها لاتوافق على هذه العبارة، فقد تعودت كل يوم أحد، في قداس الساعة السابعة، عندما ترجع من المائدة المقدسة وعلى شعرها نقاب الزوجية، تعودت أن تحس من صميم قلبها الوفي أن أسرتها الراقدة قد بعثت من جديد منذ عهد جدتها، التي لعلها قد تُركت تموت جوعاً، ومنذ أبيها وأمها القاسيين حتى زمن زوجها، ذلك الرجل العابث چاوست الذي أخذها، ذات مساء من صيف ٤٧ بين غصون الخلنج، فأصبحت منذ ذلك الحين مطية له مدة ثلاثين عاماً، وحتى طفلها الذي فقدته وله من العمر ثلاث سنوات. وهكذا كان إيمان سكان ضيعة قديمة مجهولة يستيقظ في هذا القلب العامر بالله، ولاتزال ماري دي لادوس تدعو لجمهرة أجدادها المجهولين أن يسكنوا في قلبها وأن يجتمعوا حول الله الذي كان دائماً موجوداً فيه. ولكن فيلستيه أردفت قائلة:

إنني جد واثقة من أن الغائبين مخطئون دائماً كما يقولون.

- أوه! نعم.

ولم تزد فيلستيه كلمة. وتركت المطبخ مرفوعة الكتفين وبدأت تدرك أن الغائبين على حق دائماً: فهم الذين لايمنعون الحب أن يأخذ مجراه ويحدث أثره؛ وإذا نظرنا الى حياتنا بدا لنا دائماً أننا مبعدون عن أحب الناس إلينا وأقربهم الى قلوبنا. وربما كان هذا راجعاً الى اعتقادنا بأن ملازمة الحبيب مما يضعف الحب والاعزاز. فالحاضرون هم المخطئون.

١٢

وحل الفصل الذي تبدأ فيه البرودة المنعشة، ويتردد المرء حيال أول نار توقد كما يتردد أمام مصير مجهول. وأصبح آل كازيناف قبل كل وجبة وبعدها يمكثون في المطبخ. فكانت فرصة لاقتراب الأم من ولدها ولم يكتف فرنان بإظهار عدم الاكتراث وإنما دل حديثه على عمل خفي يجري في طيات نفسه فكان يسألها بشغف غير منتظر:

- هل كان أبي وأنت يحب أحدكما الآخر؟

سؤال غريب من شخص كان فيما مضى لايفكر في الموتى بقدر تفكيره في الأحياء! ولم تحر أمه جواباً؛ إذ قدرت أن كلمة الحب قد أخذت في فم ابنها معنى جديداً، عميقاً. فألح عليها قائلاً:

- هل كنت تحبين والدي قدر ماتحبينني؟

فأجابته أن «لامحل هنا للقياس»؛ فلا علاقة مطلقاً بين مايوحي إليه الحبيب من الحاجة النهمة الى السيطرة الروحية؛ فكل آلام المحب ولذاته معتمدة عليه راجعة إليه، أو قل إن حياة المحب متعلقة بحياة المحبوب، وبين هذه الرابطة المعتادة أو الصحبة التي كانت بين الأرملة والراحل فقطعها الموت في زمن مبكر دون أن تذرف عليه دموعاً غزيرة. فقد مات نوما كازيناف وحيداً في المنزل، إذ حدث في عام وفاته أن ذهبت فيلستيه مع فرنان لمعالجته بمياه بلدة سلي. وعلمت بحادث سقوط زوجها في الطريق ولم يبق لها في الوجود إلا إلهاً واحداً وإلاً حباً واحداً. كان كازيناف

شارداً وبصره مثقل بالنوم يشخص، بين لحظة وأخرى، الى الشبح المظلم المزدوج الماثل أمام الموقد. وغسلت ماري دي لادوس الأواني في الدلو كما كانت تفعل منذ ستين عاماً. ثم رجعت، فوجدت حفيدها راقداً، فاغر الفم، مسند الرأس الى المنضدة. فتأملته: وأضاءت ابتسامة تفوق حد الوصف وجهها المنحوت من فروع البقس العميق، وجه العذراء السوداء. وحملته بين ذراعيها مع أنه كان في عمر يسمح له بالقربان الأول، وظل رأسه الجميل ثابتاً لايتحرك، وساقاه المخدوشتان القذرتان تترجحان، وحذاؤه الحديدي يشبه حافر الحمار الصغير. حملته معها دون أن تنثني: فقد حدث وعمرها اثنا عشر عاماً وهي خادمة لأجير في إحدى القرى، أي خادمة خدم، أن كانوا يجبرونها على أن تمسك طفلاً في كل يد، ثم يربطون المولود الجديد في ظهرها النحيل: فإذا ما بكى انهالوا عليها ضرباً...

وشعرت فيلستيه أن الحبيب ينظر إليها، فشخصت إليه ولم تحظ منذ أيام بمثل لك النظرة المعذبة. وتحاملت، من فرط تأثرها، على قدمين مثقلتين، وطوقت بيديها عنق ابنها، وجذبت رأسه نحوها وقالت له:

- إنني أحظى بطفلي من جديد فهو يحنو على أمه العجوز.

آه! لو كانت تقدر، قبل أن تخاطبه بهذه اللهجة الحانية ماذا ستكون إجابته لها! إذن لانصرفت عنه ولامتنعت أن تفتح له قلبها. فلا شك أنه طعنها بضربة في صميم قلبها حين أجابها بقوله:

- إنها «هي» التي تريد أن أعاملك بالحسنى...

ثم طبع قبلة على خدها.

وانصرفت عنه، وتباعد هدير قطار البضاعة، وأحست الأم بمرارة هذه الكلمة الشنعاء تشق طريقها في قرارة روحها. إنها أصبحت تدين للعدوة برحمتها. إذاً وجب أن تخضع لهذا العار. ولقد أحب ماتيلد حتى بعثها من جديد وأوهم نفسه بوجودها في نفسه وفي خارج نفسه. ومن هذا الوجود استمد هدوء لم يعهده أيام أن كان في قبضة أمه. وأمطرت السماء على الممرات المغطاة بأوراق الشجر، ولمع في الدجى حوض نحاسي صغير كأنه صفحة وجه تتقد.

١٣

في مساء اليوم التالي، جلس الابن وأمه في المكان ذاته وقال فرنان: «نستطيع أن نشغل هذه النار في غرفة المكتب»، فأجابته فيلستيه: «سوف يطول الشتاء قليلاً». ذلك لأنها تعودت حين كانت فتاة عذراء، تقطن في منطقة اللاند النائية، أن تسهر في المطبخ المعطر بعبير البلوط والينسون كما هو الحال في هذا المساء، وعلى ركبتيها كتاب «الفرسان الثلاثة» وكانت تلقته حديثاً، يضاء بشمعة من صمغ الصنوبر. في هذه الساعة ساعة وجود الابن وأمه في المطبخ، استطاعت ماري دي لادوس أن تجلس وهي تغزل. وعوت الكلاب إذ لمحت الخنازير الوحشية تتعقب الخنازير الأليفة وتجري وراءها، وعلى المائدة غطي الأبريق بمناشف بيضاء. وترك بعض الجيران قباقيبهم على عتبة الباب، وتسربت معهم الى الداخل نفحة من الليل المشبع برائحة صمغ الصنوبر، ومرت إحدى العربات تتقلب على حُفر الرمال. في هذا المساء صفر القطار وهو يشق جوف الظلام فسمعت فيلستيه دقات صدغها، فقالت لماري دي لادوس إنها تشعر بثقل في معدتها، وإنها أخطأت حين أكلت ثانية من سمك الثعابين، وإنما فعلت ذلك لكي يأكل ابنها ثانية. ولا يزال هذا السهم الذي أصابها بالأمس عالقاً بجسدها ولم تعد تتكلم بعد الآن فربما سببت لها كلمة ضربة أخرى. وأخذت ماري دي لادوس تسمع من حفيدها ريمون صلاة الايمان وكان يخطئ دائماً في موضع لايتغير فتقول له:

- أعد!

- أؤمن بروح القدس وبالكنيسة المسيحية المقدسة وبقربان القديسين وبغفران الذنوب وبحياة الأبدية.

- وبعث الجسد؟ أعد!

فأعاد مسرعاً ولكنه، كالحمار الصغير، وقف عند الهدف ذاته حائراً مأخوذاً فقالت له:

- أعد!

وأعاد الكلام في بطء ثم انطلق يتابع الكلام في عجلة حتى وقف مرة أخرى أمام «بعث الجسد» وأذناه قائمتان فقالت جدته:

- أين يسبح فكر هذا الماجن؟ أعد هذه الجملة عشرين مرة.

فأعاد الطفل وهو يضحك كأنه يلعب تلك اللعبة التي يسرع فيها اللسان قائلاً «صلصل الجرس صلصلة»: «بعث الجسد، بعث الجسد».

فلما سكت ارتفع صوت السيد:

- بعث الجسد هو عقيدة لبعض الناس...

فنفرت ماري دي لادوس ونظرت الى سيدها على غير عادتها كما هو الحال عند ما تثار المسائل الدينية أمامها ولكنها أطمأنت حين رأته جاداً لايضحك. وتظاهرت فيلستيه أنها لاتفهم في أي جسد كان يفكر، وصرفته قائلة:

- ألا تعلم أننا وعدنا ماري دي لادوس أننا لن نتدخل في كل مايتعلق بالإله...؟

وأردفت قائلة:

- ما أشد عذابي!

فلم يجبها وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، بينما كانت ماري دي لادوس توقد الشمعة وبصحبتها الطفل. وأخيراً وقف جامداً في الركن الآخر من الغرفة في أبعد بقعة من النار، وألصق جبينه بالزجاج الأسود، فنادته أمه وهي ضحية ألم عميق فلم يسمعها! ولم تكن تتصور أن حبيبها في عالم بعيد عنها الى هذا الحد. ما بالها لا ترى إلا جسماً مظلماً مختلطاً بالليل؟ وأرادت أن تناديه فلم يخرج الصوت من حلقها، ما بالها لاتراه؟ لقد اختفى، تلاشى، في ظلمات أواخر الخريف الرطبة. وأخيراً تجمعت فصاحت بعد جهاد عنيف:

- أين أنت؟

فأجابها دون أن يدير رأسه: إنه ينصت الى سقوط المطر. ثم ألصق وجهه من جديد على لوح الزجاج. وهكذا بقي زمناً طويلاً في خمول لطيف مصغياً الى صوت نقطة واحدة من المطر، تتساقط على ورقة شجرةٍ من المانوليا كانت تلمس النافذة، فإذا ما هبت الريح تساقط المطر من الأوراق، والى صوت قطار سريع، مر ولم يقف، كأنه لمح خاطف من السرعة والمجازفة، قد أضاء في جنح الظلام. ثم الى صوت آخر، ارتفع أخيراً، صوت غطيط ظن أنه يعرفه: فقد حدث منذ عدة أسابيع أن أمه وقعت بعد العشاء في سبات قصير كما يقع المرء في حفرة ضحلة. وأخذت تغط بصوت أجش مطرقة الرأس، فاغرة الفكين. وأراد فرنان أن يجمع شتات فكره، ولكنه ضاق بهذا الغطيط ذرعاً، وأنصت، فلاحظ أن للغطيط صوتاً عالياً مختنقاً على غير ماتعوده من صوتها، فالتفت وأخذ المصباح من فوق المائدة واقترب من النائمة فلم يفطن من أول وهلة: ففي وجهها الأغبر، عينان تنفتحان لا حياة فيهما ولسان يندلع بعضه من جهة الشمال. وكانت جامدة لاتتحرك، وأما الجهة الأخرى فقد كانت متشجنة عوجاء.

١٤

«لم يحدث بعد على هذا النمط» هكذا قال الطبيب وقد أخذته الدهشة من أن العجوز لاتزال على قيد الحياة. ولقد ظلت مفلوجة، لاتنبس ببنت شفة. ونقل سريرها الى مكتب الدور الأرضي حتى تمضي أيامها في المطبخ.

قالت ماري دي لادوس

– لابد أن شخصاً أو شيئاً يشغل ذهنها؛ فإنها لاتكاد تسمع القطار حتى تنظر الى ساعة الحائط لتعرف هل في الساعة تأخير.

حقاً لم تكن تعيش إلا لتنتظر فرنان: كان يدخل في الصباح حوالي الساعة الثامنة فإذا بقهوته الممزوجة بالحليب معدة له في ركن من المائدة، فيقبل جبين أمه وهي جالسة تنظر إليه وهو يأكل. وكم كان في بادئ الأمر يضيق بهذه النظرة المظلمة الدامية، أما الآن فهو لايعيرها التفاتاً. فإذا ما انقضت وجبة الظهر، وكان يتناولها وحده، جلس لحظة حيال هذه العاجزة يتصفح جريدة «جيرندة الصغيرة» ويحتال، لتغطية وجهه بالجريدة المنبسطة بينه وبين هذه النظرة الجامدة الجائحة. ولقد كانت ماري دي لادوس تقول: إنها تأكله بعينيها» فإذا ما انصرف بعد قراءة الجريدة نظرت طويلاً الى هذا الباب بعد أن يغلقه، ودلكت بيدها السليمة صفحات ثوبها حتى أصبح له بريق من شدة البلى. فإذا حانت وجبة المساء عبر الحبيب طريقه الى المطبخ وبدأت السهرة. وما كان يستر وجهه في المساء: إما لأنه كان يحس بنصف حماية من الظلام، وإما لأنه رضي أخيراً أن يُعبَد، والعابدة على حافة القبر. وما

كانت تعيش طيلة نهارها إلا لتشبع بصرها في بدء المساء، قبل أن يعمها الظلام. وحوالي الساعة الثالثة، حلت لحظة إنقاذ المرأة الشهيدة. آه! ما أمر هذا الوجه المنبسط وهو يتدفق حباً لم تُشبْ عليه هي، بل ظفرت بحظها منه امرأة أخرى! ومع هذا فقد دفع فيلستيه كازيناڤ شعور خفي بأن من الخير أن تتعذب من أجل ولدها. وما كانت تدري أنها تقاسي عذاب الموت.

وقضت نحبها، في نهاية الخريف. ويحكي سكان بلدة لانجون أنهم اضطروا أن يمسكوا بفرنان كازيناڤ؛ لأنه انحنى على الحفرة انحناء من يريد أن يلقي بنفسه فيها، ولم يفهم أحد أنه كان يحاول فقط أن يلمح بين أشباح القبر في الظلام شكل التابوت الذي غدت فيه ماتيلد غباراً ورماداً.

١٥

خطر لفرنان، قبل كل شيء، أن كاتباً شرعياً سخيفاً كان وحده يصرفه عن ماتيلد. كيف يستطيع فرنان أن يجمع شتات فكره، وأن يتعمق حتى يبلغ ذكريات زاخرة حيث تسهر روح محببة الى قلبه، فغالباً ما يحضر، في كل ساعة من النهار، رجل قصير بطين، فيملي إرادته وينشر أوراقه ويسأل التوقيع؟ ذلك أن نوما كازيناف، والد فرنان، قد حرم ابنه الأكبر من الإرث لصالح زوجته. وما كان لفرنان أن يرفض هذه الوصية غير الشرعية؛ فقد كان لايزال القانون المدني في بعض الأسر العريقة، خاضعاً لإرادة الآباء القوية. فلما بلغ فرنان سن الرشد، آثر أن يعتمد على أمه في القيام بأعباء هذا العمل، فقامت به، بطبيعة الحال، عن طيب خاطر. ومنذ ذلك الحين كان فرنان في كل شهر يأخذ منها مايلزمه من النقود، وظل تحت سلطان أمه. وظل هذا الخضوع، الذي كان مصدر سخرية من ماتيلد، الى أن أصيبت أمه بالشلل قبيل وفاتها.

ثم قدر لفرنان، أخيراً، أن يوقع بإمضائه، فخيل إليه أن ماتحدثه موارده وأراضيه من جلبة وضوضاء قد قضت على هدونه العذب وبطالته المقدسة حيث كان، منذ قليل، يعيش مع ماتيلد. ثم عرف كيف أن من الميسور أن يكون له حساب جار في المصرف، وأن تنبت شجرة الصنوبر من تلقاء نفسها! وفهم أن والدته حينما كانت تركب العربة الصغيرة، في عيد جميع القديسين لكي «تحصي الجواهر» في مناطق الرمال كان دافعها الوحيد أن تتنسم عبير الصنوبرة النابتة في مسقط رأسها مرة في

العـام، حين يعـتدل الليـل والنهـار فـتـهـتـز قمم الصنوبر المظلمة؟ حتى حقل الكروم سرعان ماتخلصت منه الأرملة. وكم كان زوجهـا يحبـه ويؤثره على غيـره. بينما لم تقبل أن تتخلى عن شبر من هذه الغابات الموحشة التي وُلدت فيـها ونشـأت على أرضهـا. وإن فرنان ليذكر أيام طفولته، حين قام بسفرة طويلة شاقة الى جده پيلوير، فعبر بالعربة الصغيرة منطقة سوتيرن، تاركاً حقول العنب ونهر الجارون السعيد ووصل الى طريق الغابة حيث رعاة البقر يقلبون الأرض بحوافرها. وكـانت أمه في ذلك العهد، تتلثم بلثام أسود معقود تحت دفنها. وأخذت مشية العربة ذات العجلتين تهزه وتلقي برأسه الى الوراء، فما كاد يلمح سماء أكتوبر المضطربة منسابة بين القمم السوداء المتلاصقة، وأسراب الطير تحلق على هيئة مثلث من شاطئ يميد الى آخر حتى طفق يصيح رعباً. فإذا ما أحدث الماء الغزير منعرجاً في الطريق، وتكشف فجأة عن هواء بارد أسرعت أمه فغطته بمعطفها، فكأنها تبسط عليه جناحاً أسود، خشية عليه من البرد. وكذلك كانت إذا اشتكى حرارة القيظ وضعت في قلق أصبعها بين رقبته وياقة قميصه. وحدث، في ذات يوم عاصف، أن أزعج ذباب البقر حصان العربة، فكسر العريش في وقت يرخي فيه الليل سدوله بسرعة. وانتظر فرنان وأمه على حافة الطريق، بينما وقف الفلاح الحوذي يصلح العربة. وتذكر فرنان أنه شعر في هذه الطريق الخالية التي يغمرها الأصيل بأمانٍ سعيدة، وبدت بعيداً عن كثبان الرمال العالية، شجيرات السرخس ترتعش صفراء محترقة. ودوى صياح الراعي كالوحش، يجمع الماعز المتفرقة المختلطة في قطع الظلمات... وكان أكبر لذته أن أمه تصحبه هناك...

نظر فرنان حوله، فوجد الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد، والإطار المصدف وهي لاتبتسم فيه، وعصفوراً يتسلق الأغصان ويشدو بصوت من الربيع، وصباحاً مفعماً بالدخان والشمس. ووجد ألا سبيل الى مناجاة ماتيلد إلا بالصعود من أعماق حياته الى أعلى قمة لأقرب لحظة من لحظات الماضي. وحاول أن يحنن قلبه ذاكراً كم كانت حياتهما معاً قصيرة الأمد. والآن، ولا فارق في الموت بين الكنة والحماة: فعدوتها القديمة قد لحقت بها في المقبرة الثالثة، الشمالية، اللاصقة بالحائط. كلتاهما أصبحتا رهينة الفناء. ولايزال فرنان متضايقاً من أنه قضى جانباً قصيراً من حياته، من أجل زوجته، بينما الأم قد بسطت عليه جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة.

وارتدى ثيابه، وجاس خلال الحديقة، ونظر خلسة الى نافذة المكتب حيث

لاعجوز تضايقه، ولا وجه يتربص به. ولكن لماذا يحس بقلة الرغبة في اللحاق بماتيلد؟ ألأنه قد أمن الرقابة من جانب العجوز؟ أم أن حب أمه الهائل، الملح، كان قد أحاطه بألسنةٍ من النار، فما زال لهيبها يطارده حتى اتطوى على نفسه فهرب مع ماتيلد؟ ها هي ذي الشعلة قد خمدت نارها - هذا الموقد الذي كان يُشعل فيه الغضب قد غادر فرنان فجأة، فتركه ينتفض، في وسط الرماد. هنالك قوم لايحبّون إلا ليكيدوا قوماً آخرين، فإن أنين المرأة البغيضة هو الذي يدفعهم الى حب امرأة أخرى.

والآن يقف فرنان، في ممر الجنوب، يتنسم عبير الزنبق، وينصت الى طنين زنبور ضخم، ولم يوح إليه حاجز الحناء بما كان يوحي إليه من قبل. ونادته ماري دي لادوس للطعام، فأكل بازلاء طازجة أكثر من عادته، وجلس بمفرده في غرفة المكتب، ولايزال فيها سرير المشلولة قائماً. فأحس، خلال عملية الهضم، بلذة عابرة، وفي ثوانٍ، تذكر «مزاجه» فعقد النية على إرسال برقية الى شارع هوجوري، وجلس الى مكتبه، وأخذ يستذكر صيغة البرقية، وكم كان يكتبها أيام أمه، ويده ترتجف غيظاً، فقد كانت خواطره لاتواتيه إلا بعد مشادة معها، وكم كانت تسخر منه، وتصيح به: «سترجع إليّ في حالةٍ مرضية، وستنضج خلال ثلاثة أيام!» وما كان يجهل أنها تكاد تموت من القلق لبعاده عنها، وأنها لاتذوق للعيش طعماً إلا بعودته إليها. ولولا ما كان يستولي عليه من ضيق لما فكر في مغادرتها. وكم كانت عودته مخجلة له، عذبة لديها، فيؤوب الى الحياة في جو مفعم بسرور مؤنب، وسخرية رقيقة، ورعاية فائقة! وكانت فكرة العودة من بوردو الى هذا المنزل الخالي، تخيفه فقد كان هذا الشيخ الفاني المتلاف، يخشى أن يرجع دون أن يلمح أمه لدى نزوله من القطار متكئة على الشرفة المطلة على المحطة ويدها ترتفع الى حاجبها تحاول أن تتعرف عليه بين قطيع المسافرين. تذكر فرنان هذا كله فمزق البرقية ولم يعد يفعل شيئاً. فلقد شاءت أمه ألا يعيش إلا بها، كأنه متعلق بأنفاسها. ولو لم تتحمل مناقشة ما، في عمل، أو لهو، أو أمل، لكان حسبها فخراً أن تكسب هذه النتيجة وهي في أعماق القبور. فما إن انطفأت شمس الأم حتى دارت به الأرض الفضاء، كرقعة من الأرض فقدت مدارها.

١٦

سار المتنزهون، على ندرتهم، في الطريق الممتد على طول الخط الحديدي بوردو - ست ووقفوا يراقبون من خلال الأشجار، ذلك المنزل الضخم الصامت الذي يقال عنه إن أحدا لم يعبر عتبته حتى الآن. ورأوا خلال بضعة أسابيع تالية، أن ضلف النوافذ تنفتح. فقد كان فرنان كازيناك يمضي من خلفها ليالي مؤرقة، مستلقياً على فراش ماتيلد. ولوحظ في ذات صباح، من منتصف الصيف أن الضلف ظلت مغلقة. وخمدت كل حياة في «جناح العدوة» كما كانت تسميه فيلستيه، حتى إذا حل يوم الأحد انفتحت نوافذ فيلستيه كازيناك، وبعد فترة قصيرة انفتحت أيضاً نوافذ الغرفة الأخرى حيث يتعلل فيها فرنان بالنوم على سرير طفولته، ولم يكن يذوق طعم الرقاد في هذه الغرفة أو في تلك. حتى إذا حل الخريف وجاء وقت الاحتفال بعيد القديس ميخائيل أقبلت الغجريات لابسات أسمالاً حمراء، وعسكرن الى جانب سور الحديقة، وأوقدن ناراً ملأت ريحها الكريهة كل مكان - أوصدت الى الأبد، غرفتا فيلستيه وفرنان. وكما هو الحال في أي جسم ضخم يوشك على نهايته، كذلك كان حال المنزل، فالتجأت الحياة الى أطرافه وتركزت في المطبخ؛ واستعمل فرنان سرير المشلولة وكان لايزال قائماً في الدور الأرضي، فإذا تنفس الصبح هب يغسل وجهه غسلاً عابراً، ثم يدخل المطبخ فيجد لدى ركن المدخنة كرسيا كانت أمه تجلس عليه، تلتهمه بعينيها وهي في حشرجة الموت.

تراكم التراب في الدور الأعلى، في غرفة ماتيلد، وأغبر زجاج الإطار المصدف حيث كانت تتوارى خلفه طلعة نضيرة لاتبتسم، وزهور الزنبق جفت من شهور ولازالت في الأصص التي نسقها فيها فرنان فيما مضى بحرارة وإيمان. وضجّت ماري دي لادوس من تراكم العمل الملقى على عاتقها، وأظهرت أنها عاجزة عن القيام به كله.

ظلت ماري دي لادوس كما كانت فيما مضى، خادمة خاضعة ترتعد فرائصها كلما وجهت بقول لأنها كانت ترى الآن بوضوح أن الصنم القديم قد تهدم ونزل من عليائه مسلماً لها. ألح عليها فرنان أن تنام في الغرفة السوداء الملحقة بالمكتب كأيام أن كانت تسهر فيها على سيدتها، حتى يستطيع أن يناديها في أثناء الليل بصوته الباكي المتهدج. إنها ملاذه الأخير، فهي التي عرفت أجداده القدماء الذين أحبوا طعامها اللذيذ المطهو حسب تركيبات قديمة منسية، والذي ينشر رائحته حتى أبعد غرف المنزل، وهي التي أفنت يديها ثلاثة أجيال من آل بيلوير في شؤون الغسيل. ولكن القدر قد طارد فرنان كازيناف، وطرده، حتى في هذا الملاذ الأخير.

حلت فترة قطاف الكروم، وحل معها الى المطبخ البط والحمام الوحشي وريمون حفيد ماري؛ إذ كان أهله يقطفون العنب في قرية إيكيم عند السيد الماركيز. وأصبح ريمون ماجناً، حسن الوجه، كثير الحركة، أشرف الأذنين، محرّق الصدر، كوعاء من الفخار، عاري القدمين، نظيفهما. إذا مشى فرقعتا على البلاط البالي، له ضحكة بتراءتُفْرِخ في عينين كحبات عنقود من العنب الأصهب. خشيت ماري في بادئ الأمر أن يكون الطفل مصدر تعب لسيدها لأنه دائم الحركة، كثير الدخول والخروج، يفتح الباب ثم يدعه ينصفق. ولكن فرنان كان يمنعها من تأنيبه، فقد كان يرنو الى هذا الشحرور الصغير بمثل تلك النظرة الجائحة التي كانت أمه ترمقه بها وهي صامتة، في العام الماضي. وواتته الرغبة في أن يحدثه، ولكن ما الذي يجب أن يقال لطفل؟ أخرج من كيسه علبة مستديرة فيها قطعة من الحلوى كان يحتفظ بها ضد السعال وانتظر حتى مر ريمون بجانبه، فقدم له الطعم قائلاً: «فستقة؟» فوقف الصبي لاهثاً، أحمر الوجه، وما إن مد يده ليتناولها حتى قبض عليه من ذراعيه يريد أن يستبقيه ولكن الطفل حاول أن يطير، بشعره الأطلس النافش كالريش، وهو يلفت رأسه ويشيح بوجهه ويدبدب برجليه...

فلما أيقنت من أن وجود حفيدها لايسيء الى سيدها حاولت ماري أن تستبقيه طيلة الشتاء. ولم يكتشف فرنان خطورة بقائه إلا فيما بعد. ولو كانت فيلستيه حية لما أضاعت وقتها في بحث مثل هذا الطلب. فقد كانت تعلم أن أمثال هذه الطبقة «لا يُرتبط معها بشيء» وما كانت تتردد وهي تطرد ماري الى الفرن وتصفها بالوقاحة أن تقول لابنها العزيز: «لولا ذلك ملكتني! لحسن حظك أنني على قيد الحياة! لولاي لوقعت في الشرك، فإنك عاجز لاترى أبعد من أنفك، وما لديك من قوة الدفاع أكبر مما لدى الطفل. ولولا سهري على المنزل، وعليك لمسّك الضر من كل جانب». أما الآن فهي ليست بجانبه، وما كان فرنان يقدر خطورة بقاء هذا الطفل، وعلى كل، فالذي حدث أن ماري قد رجت أهل ريمون أن يتركوه عند السيد كازيناف، فتظاهروا بالموافقة شفقة على سيدها.

ولم يلبث فرنان أن ضاق ذرعاً بهذا الماجن النهم، القذر، وأصبحت ماري لاتعنى بسيدها الهادئ عنايتها بدولاب الأطعمة أو ساعة الحائط. ولاحظ أن ماري دي لادوس قد تراخت في خدمتها وتهاونت في شؤون منزله، وأهملت ذلك الصنم الهرم المخيف، وانصرفت الى الصبي المشرق الذي كان من دمها. ولم يعد من اليسير أن تعد الحساء إلا بعد جلوسه الى المائدة، فقد كانت دبدبة قبقابه على سلم مدخل البيت مؤذنة ببدء ساعة الأكل. وحدث أن أصيب ريمون في ديسمبر بالتهاب خفيف في حلقه، فدفعها ذلك الى مغادرة الغرفة التي كانت تنام فيها قريباً من سيدها. ومما زاد الحالة سوءاً أن أقامت أم الطفل في المنزل بحجة علاجه. وكم كانت ماري دي لادوس تخشى هذه المرأة. إنها امرأة من منطقة اللاند، هتماء سوداء، تذكّر عيناها ومنقارها بشكل دجاجة نهمة. أما أبوه، وكان يعمل في مزرعة قريبة ثم يعود في المساء الى منزل فرنان أيضاً، فهو من منطقة الجارون، فحل قوي، برز سرواله الأكرش المحوصل، من بنطلونه الأزرق، وعجز الحزام عن حبك جوانبه - إنه هرقل الذي حطمته وأعيَتْ قلبه سوتيرن القاتلة. ونقه الطفل ومع ذلك كان الزوجان يتخذان المطبخ في كل مساء، مقراً لتناول الطعام، حتى اضطر فرنان أن يأكل في حجرة الطعام وهي قارسة البرد لايجدي فيها إيقاد النار ولايخفف من رطوبتها. وسمع خلال وجبته القصيرة ضحكات فظةً، وأصواتاً كعواء الكلاب، فإذا مافتحت ماري الباب للقيام بخدمته، التزما الصمت، فلا يسمع إلا

تمتمة لهجتهم المحلية، وصليل الملاعق والآنية، فإذا أوصِدَ الباب عادوا الى الضحك والعواء.

لم يدر أحد من الأبوين بحالة فرنان وهو في غرفته القارسة البرد، التي كان يبغض ألواحها الخشبية الباهتة، الزائفة، لم يكن وحيداً. فقد كان كلما رفع بصره عن وعائه بدا له مكان أمه الذي جلست فيه زهاء نصف قرن، مهيبة عزيزة الجانب. وكم كانت، وهي في جلال الموت، تثير الهيبة، بوجهها المتأله العبوس، في قلب ولدها الضعيف. ماذا! ألم يئن له أن يطرد هذه البراغيث من المنزل؟ وتذكر فرنان تلك الإلهة الرهيبة التي عرفت بتقطيب حاجبيها أن تسيّر طوع أمرها الناس، الوسطاء، الأجراء والخدم جميعاً. ومد الى «الوالدة» العظيمة يده متوسلاً، منهزماً كإنياس الهرم وهو على وشك الهلاك. لقد أقر بأنه عبد تلك المرأة الجبارة، أمه العجيبة! كيف تجاسرت مدرسة صغيرة ساخرة على أن تقف في طريقها؟ يا ماتيلد إن شبحك جاثم على هذه المائدة بعيداً عن النار، في وجه تيار الهواء، كأنك على قيد الحياة لم تتقدسي بعد بالموت. هكذا تذكر فرنان ذلك الظهر المحدودب، والجسد الطليح، والعينين الصفراوين اللتين تشبهان عيني قطة مطاردة.

اهتز المنزل بمرور القطار السريع وحال صياح في المطبخ دون سماع هديره فوق نهر الجارون. ومس فرنان طائف من نزوات أمه - تلك النزوات التي جعلت العجوز الضخمة الوحشية تدبدب برجليها. فما إن انتفض قائماً وتقدم نحو الباب حتى ظهرت ماري دي لادوس تحمل إناء للبن. فحملقت في وجه سيدها؛ وكانت حاذقة في رصد علامات العاصفة على هذا الوجه؛ فقالت بصوت مختنق:

- سأذهب لأنبه هذه «المرذولة» فإنها تقلق راحة سيدي.

وعادت الى المطبخ مذعورة، وكانت هذه المرذولة تبث فيها الفزع الذي تعود أن يوحيه الصبية الى عجائز منطقة اللاند، فوجدت موضوع النزاع أن زوج المرذولة قد سلب منها مالها القليل الذي اقتصدته تدريجياً، وأخذ يتهمها بأنها لاتزال تخفي نقوداً. ولم تمض بضع ثوان حتى كان فرنان يسمع صوت ماري العجوز وحدها تتحدث. ثم نبحت المرذولة فجأة بلهجة المنطقة. وليس أدل على العزلة الشاذة التي يعيش فيها فرنان كازيناف من جهله بهذه اللهجة. ولما ألصق أذنيه بالباب فهم أن ماري كانت تتحدى أولادها. ولكن ماذا يطلبون من العجوز؟ سمع كلمة «سيدي»

تتردد كثيراً في أحاديثهم، فمن الجائز أن يكون هو موضوع المشادة. ولما كان فرنان رديء السمع ترك غرفة الطعام ومر بالدهليز، فأيقظ وقع خطاه صدى في غرفة فسيحة، تنتهي بأبواب خالية من الضلف، وتقسم رحبة طويلة الى رقعتين مضيئتين في ليلة قارسة البرد. ثم أعاده المشى الى باب هذا المطبخ الواقع أمام السلم الكبير. فسمع هذه المرة وهو يرتعد في الظلام كلمة «الماجن» علاوة على كلمة «سيدي» التي كانت ترددها، وسمع ماري تصيح بلغة واضحة: «ولكني أخبركم أنه لم يسأل مرة واحدة عن أخبار هذا الماجن، وأنا أدري بسيدي، فهو لايتعب نفسه في سبيل الماجن! كان الصبي سلوته بضعة أيام، أما الآن فإنه لم يعد يقبله، وعلى كل فلا يمكن أن يفرض عليه...» فقاطعتها المرذولة عاوية: «نعم! إن في إمكانك أن تفرضي عليه ماتريدين. لن يستطيع هذا الشيخ الفاني أن يعيش بدونك، ولكنك لاتحبين أسرتك...» واستأنفتا نباحهما بلهجة قروية.

نفض فرنان قامته العالية، واحس بأمه تحثه الى الأمام، لأنها كانت في صميم نفسه، كانت تملكه. ماذا ينتظر؟ لم لايدفع باب الغرفة دون استئذان، ويحطم هذه المائدة بضربة من قدميه؟ ولكن قدميه تخونانه وقلبه تختل ضرباته. «فالنوم قبل كل شيء...» وارتمى على صندوق الخشب المغلق بعض الإغلاق، فقرقع الغطاء وقاطع الصوت المدوي الصادر من وراء الباب، فنهض وذهب الى المكتب حيث كانت النار قد خمدت. وأخيراً، بعد أن استلقى وأطفأ شمعته، لاحظ أن ماري أهملت إغلاق الضلف، فرأى من سريره صفاء الليل، وقد ظل الجو ممطراً طيلة النهار فباتت الأشجار تنقط في هدوء رائع، فلم يكن في الكون إلا صوت هذه الدموع الساكنة. فسرى إليه هدوء وروحانية، كما أنه أحس بأن من وراء حياته القاسية، من وراء جفافه الروحي، سلطة من الحب والسكون، حيث تستحيل أمه امرأة تختلف عن التي استولت عليه كالشيطانة، وحيث تشخص إليه ماتيلد بوجه منبسط هادئ الى الأبد بابتسامة قديسة.

وما إن طلع النهار، وأيقظه انهمار المطر، وقلب بصره في هذا الصباح الحالك، صباح الشتاء حتى ثار بغضه، ونأى عن ذهنه ما كان غمره من إحساس الليل الجميل بتلك السعادة المجهولة، وتصاعدت فيه بواعث بغضائه مثل مد البحر على هذا الصباح الكئيب. فطوى في ملاءته جسمه الفاني المتألم، وخيل إليه أن النهار أمام

عينيه، كطريق رملية قفرة بين أشجار الصنوبر المتقدة، فأغمض عينيه ليتغلب على الزمن ويقفو بلا شعور أثر هذا الغذاء الروحي. ولكن ماري دي لادوس أوقدت النار، ووضعت فوق وسادته القهوة الساخنة الممزوجة باللبن، وهو يتظاهر بالنوم ووجهه لصْق الحائط.

١٧

بعد الغداء، جلس فرنان في المطبخ أمام النار. وما كان أشد فزعه، وهو متجمع في مقعده، في جو ديسمبر القاتم، حين تذكر أمه وهي في لحظة الموت! دخلت ماري دي لادوس وهي تعين حفيدها الضعيف على المشي، وقد كان يومئذ ينهض من نومه للمرة الأولى، ونظرت في السيد تحاول أن تكشف عن قلبه، ولكنه لم يرفع بصره عن اللهب، ودفعت إليه الماجن وهي تقول له:

- ماذا تقول لسيدي؟

فلم يلتفت إليها فرنان، فأعادت عليه:

- لقد تعذب المسكين، وأصبح غاية في النحافة وابتلعت عيناه وجهه.

وتحسست ذراع الولد، وأخذ السيد الملقط ثم وضعه لأن يديه كانتا ترتعشان، ثم قذف الصبي الماجن بنظرة قارسة. وتذكر كلمتين مألوفتين بلهجة القرويين، رغم جهله بها ، كان يحفظهما عن جده بيلوير وأمه فيلستيه حين كانا يريدان أن يبعدا شخصاً أو حيواناً من أمامهما:

- اذهب من هنا.

وقام ينتفض، كما كانت تفعل أمه. إلا أن أمه كانت أصلب عوداً وأشد هيبة. فتراجعت ماري بخضوع رهيب، وأخذت معها الصبي الماجن الأشعث وهو يقفز كشحرور سقيم.

ولبث فرنان حتى المساء أمام مدخنة غرفة المكتب. وفي الساعة الرابعة أحضرت

ماري المصباح، وأغلقت الضلف، وبقي وحيداً حتى دلّه الصياح على أن أم ريمون في المطبخ - حينئذ جلس في الدهليز المظلم على صندوق الخشب كما فعل أمس ولم يتحرك، وسمع ماري تقول في أسلوب الرجاء: «لا. لا سوف يسبب له ذلك ضربة دامية...» ثم طغت لهجة المرذولة على صوت الأم. وصاحت بأنها ستقوم بنفسها لوضع آنية الطعام على المائدة، ولم يفهم فرنان معنى هذا التهديد. وأحس بالبرد فعاد الى غرفة مكتبه، وظل شاخصاً الى النار لايتحرك. وعند الساعة السابعة حضرت ماري دي لادوس لتخبر سيدها أن كل شيء قد أعد. فأخذت المصباح ورفعته كما كانت تفعل كل مساء، وانسحبت من أمام سيدها وهو يبصر في ضوئه وجهها الهرم المتهدم. وقام فاخترق المطبخ ودفع باب غرفة الطعام ونظر ففهم كل شيء. كانت أمام آنية طعامه آنية أخرى موضوعة على الغطاء النظيف. ولما كانت المائدة جد مرتفعة على الصبي الماجن، فقد وضعت المرذولة كوماً من الكتب على الكرسي حتى يتمكن ريمون في جلسة مريحة من أن يدرك الحساء على المائدة.

كان الطفل يبكي من خلف الباب، ولم يجرؤ على الدخول بالرغم من أوامر أمه التي بدأت ترفع صوتها. وأحس فرنان كازيناك أن موجة من الغضب تنبعث في نفسه وتشتد، وتسربت روح أمه في نفسه، وغزته، واستولت عليه، وتناول قدحاً من زبيب فشربه دفعة واحدة، ثم ضرب بيده فتحطمت على البلاط آنية الطعام المخصصة للولد، وعم المطبخ سكون رهيب، ودخل السيد فرأى المرذولة في مقدمة الغرفة ذات عينين كعيون الطير، ومن خلفها ماري دي لادوس ترفع يديها المعقودتين. وتذكر كازيناك مرة أخرى اللهجة الريفية التي كانت تستعملها أمه عندما كانت تود أن تطرد من أمامها إنساناً أو حيواناً فقال:

- اخرجوا من هنا!

فتقدمت المرذولة واحتجت بأن سيدها هو الذي أراد أن يستبقي الصبي الماجن، وبذلك قد ضيّع عليه فرصة طيبة، وسيدها كان معروفاً دائماً بعنايته به وحرصه على بقائه... فتعلق به الصبي وتعوده... وسكتت وهي تنتفض، والسيد صامت يحدجها بنظرة قارسة، ثم أعاد عليها قوله:

- اخرجوا من هنا!

فثارت المرذولة وصاحت بأنهم لن يغادروا المنزل إلا بصحبة المرأة العجوز. أما ماري دي لادوس فوقفت صامتة، وأشاحت بوجهها بعيداً وهي تخفيه بيديها ذات

الأوردة المنتفخة. وانفتح باب المخزن المجاور، وبرز الصبي بوجه كوجه الثعلب الصغير المصيد في جحره، وأيقنت المرذولة أنها تغلبت على خصمها بهذا التهديد، وابتسمت بسمة الفوز، فكشفت عن لثة صلبة وثغر قاتم. مما جعل فرنان يتمزق من الغضب ويستسلم الى شيطان أمه. وبحثت أصابعه بحركة مرتعشة عجلى، في حافظة نقوده، عن ورقة من فئة مائة فرنك وقذفها الى ماري دي لادوس فالتقطتها بنتها، ثم فتح الباب، وقال للخادمة بصوت هادئ:

- غداً تعودين لتأخذي حقيبتك.

فنظرت إليه، وتذكرت سادتها الموتى حين كانوا يطردونها ووقفت لاتنصرف، فأعاد عليها الكلمة بصوت پيلوير:

- اخرجي من هنا!

وكان شامخ الرأس، منتفخ الرقبة، نموذجاً من أمه وهي نابضة بالحياة.

١٨

سمع فرنان كازيناف وقع قباقيبهم في الشارع على طوال خط بوردو - ست، فملأ قدحه، ثم أفرغه وترك الغرفة. وهدر القطار الأخير على النهر، ولم يرتجف المنزل. ومشت سحب رقيقة تخفي تحتها قمرا كان يضفي - على خفائه - نوراً على الكون. ووقف فرنان كازيناف، بلا مصباح، في وسط الدهليز يرى هيئته في المرآة القريبة من الباب. وساد حوله سكون أعمق من سكون الأمسيات الغابرة. وهو لايذكر أن ماري دي لادوس قد أقلقته أنفاسها حين كانت تسهر سهراتها الماضية، بينما كانت أنفاس نائم واحد، في حجرة نائية، تعكر صفو المنزل، وموجة ضئيلة من الحرارة الإنسانية تسبب خفقان القلوب. إذن لقد عرف فرنان لذة السكون للمرة الأولى. فكان ينصت الى المطر - كما كان في اليوم السابق - وهو يتساقط من الأغصان، وليس من شيء حول المنزل الهامد إلا هذه الدموع النائحة الهادئة، التي لعلها جعلته يحس بهذه اللحظة، لحظة الهدوء القريب من عالم الحب والسكون الذي تعيش فيه أمه الحقيقية - أما أمه التي ألهمته أن يطرد خادمة عجوزة مطيعة - فهي امرأة أخرى لاتزال نابضة بالحياة، في مكان آخر، يستمد منها، في هذا المساء هدوء خالياً من كل غضب، وعزوفاً عن كل ضيق، وعزلة سحرية. إنه يعتقد أن هذا كله قد صدر عنها، ولم يدرك أنه قد شرب نبيذاً، وأن أقل سكرة كافية لإرساله الى الحياة الأبدية. وأخيراً صحا من هذا الذهول على

قشعريرة البرد، واصطكاك أسنانه التي تحكي مافعلته ماتيلد في ساعة الاحتضار. حينئذ سار في الممشى المؤدي الى «جناح العدوة»، وتنقل من غرفة الى أخرى وهو ينتفض، حتى بلغ غرفة أضيئت بنور القمر النافذ من خلال الضلف، وقد ألقى على الإطار المصدف قبساً منه، ورسم على الحائط ظلاً أنيقاً لزنبقة ذابلة. وفي أعلى السلم، انفتح باب المخزن ودخل فرنان. وكان هذا الباب، فوق الردهة، يصل بين جناحين، ووجد كوة تجمع أضواء الليل الصافية كما يتجمع الماء، ثم تفرقه على صندوق مزخرف بزهور الخزامى المرسومة. ومشى فرنان يتعثر في أشياء ميتة حتى فتح باب غرفة صغيرة، كانت ماري دي لادوس تنام فيها قبل أن تقوم بالسهر على سيدتها؛ وفي هذه الغرفة، كانت ماري تواظب كل صباح على أن تعمل زينتها، وفيها وضعت كل ماتملكه في الوجود في صندوق من الخشب الأسود، وفيها برد قارس يبعث رائحة الصابون، وثياب من يدأبون عادة على العمل لغيرهم من الناس. وفيها كوة أضيق من كوة المخزن، تجمع صفاء الليل على تمثال من الجص للعذراء وهي تبسط يديها. وتركت على سريرها، في ظلام الليل، صليبها المنقوش عليه جسد المسيح، هذا السرير المغطى بملاءة عتيقة مصورة، وهي القطعة الثمينة والثروة الوحيدة لهذه الغرفة. وكانت ماري دي لادوس كلما قيل لها إن القطعة غالية القيمة، طرحتها جانباً. وعلى هذه الملاءة جلس فرنان، وانهمرت دموعه وقد طأطأ رأسه، وكوعه مرتفق على ركبتيه، ووجهه بين يديه، والبرد يُثلج الدمع على خديه، وجسمه يقشعر خوفاً وفرقاً. وأوجس خيفة من أن يموت وحيداً في الغرفة، فخرج من المخزن يترنح، وتشبث بسياج السلم حتى بلغ غرفته واستلقى على فراشه.

ولم يذق فرنان طعم النوم، وشعر بثقل لا حد له على صدره وأنامله. وتراءى له، في حلم، أن شخصاً يسير في الحديقة. ولكن پليو لم يكد يشتد نباحه حتى هدأ فجأة. وخطر لفرنان أنه نسي أن يغلق الباب بالمزلاج، فقد سمع الباب الكبير ينفتح بدفع خفيف، ولكن لم يتطرق إليه خوف ما، وإذا بوقع خطوات من جهة المطبخ، تتباعد شيئاً فشيئاً، وضوء ينفذ الى أرض غرفته. فأغلق عينيه ثم فتحهما، فإذا بماري دي لادوس تمسك بمصباح فتلقي نوراً على وجه العذراء السمراء. ولكنها لم تتقدم خطوة، وانتظرت حتى يناديها:

- ياماري!

حينئذ أتت إليه بعد أن وضعت مصباحها ، وأحس بيدها البالية تمر على جبهته.

چوهانية. سان سامفوريان

في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X
9 782843 058356



سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

الإتحاد	العراق
المدى	العراق
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
القبس	الكويت
السفير	لبنان
القاهرة	مصر

